

أدب الأئمة

للمدارس الثانوية

ألفه بتكليف خاص من وزارة المعارف الأساتذة

محمد أبو بكر إبراهيم مصطفى مفاوي علي محمد حسب الله
محمد عبد الرؤوف بهنسي

اشترك في تأليفه وراجعته الأساتذات

محمد أحمد هادي المولى بك علي الجارم بك

الجزء الأول

لتلاميذ السنة الأولى للبنين

الطبعة
مطبوعة وزارة المعارف العمومية

١٩٣٨

ادب الأئمة

للمدارس الثانوية

ألفه بتكليف خاص من وزارة المعارف الأساتذة

محمد أبو بكر إبراهيم مصطفى غفافي علي محمد صبيح الله
محمد عبد الرؤوف بهنسي

اشترك في تأليفه وراجعته الأستاذان

محمد أحمد جاد الحولي بك علي الجارم بك

الجزء الأول

لتلاميذ السنة الأولى للبنين

الطبعة
مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٣٨

(حق الطبع محفوظ لوزارة المعارف العمومية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمدك اللهم استئماناً لنعمتك ، وإقراراً بربوبيتك ، وفستيتك مفتقرين إلى هدايتك : التي كشفت عن القلوب حجب الظلام ، فكانت أمناً لمن تعلق بها ، وسلماً لمن دخلها ، وبرهاناً لمن تكلم بها ، وتبصرة لمن عزم ، وعبرة لمن اعطى ، ونجاة لمن صدق .

ونصلي ونسلم على نبيك الكريم الذي أرسلته بالدين الحنيف ليتم مكارم الأخلاق ، ويدعو إلى الحق في جميع الآفاق .

اللهم صل وسلم عليه وعلى جميع الرسل والأنبياء والآل والصحاب .

وبعد : فهذا كتاب تقدمه للناشئة المثقفة ، جمع بعض ما يشمل عليه الإسلام من كريم الآداب ، وأحاسن الأخلاق ، ومن الحكم الغالية ، والأغراض العالية ، وما تضمنه من التشريع السامى الذى رفع الجنس البشرى إلى أشرف منزلة وأرفع أوج . هذا إلى تفسير كثير من الآيات الشريفة ، والأحاديث الكريمة : التي جمعت من الأحكام ما فيه سعادة الدنيا والآخرة .

وقد جاء هذا الكتاب على وفق المنهج الأخير الذى وضعته وزارة المعارف لطلبة المدارس الثانوية ؛ لإحياء الدين في نفوسهم ، وتطهيرها من شوائب السوء ، وطبعهم على شريف الأخلاق وكريم الخلال .

والله نرجو أن يكون لكتابنا هذا من الأثر النافع ما يحقق آمالنا .

وبالله وحده التوفيق

المؤلفون

ذو الحجة سنة ١٣٥٦ هـ (فبراير سنة ١٩٣٨ م)

حَاجَةُ النَّاسِ إِلَى الرُّسُلِ

اقتضت إرادة الحكيم الخبير أن يتفاوت الناس في أُمُور جُزئهم وعقولهم، ويتباينوا في طباعهم وميولهم ؛ وبذلك يختلف نظرهم إلى الأشياء نفعا وضرا، خيرا وشرا، حبا وكرها ؛ فقد يرى المرء نافعا ما يتجلى لسواه ضرا، وخيرا ما يتضح لغيره شره، ويجب ما يجدر به كرهه، وقد يتجسط سبيل الوصول إلى الحقيقة، ويصل إليها غيره من أقرب طريقة .

فالناس مقطورون على معرفة الخالق العظيم، ولكن بتغاير عقولهم اختلفت وسائلهم في الزلّقى إليه : فمنهم من رآها في عبادة بعض الأجرام السماوية، ومنهم من رآها في عبادة بعض الفصائل الحيوانية، ورآها قوم في عبادة الأصنام والأوثان، وآخرون رأوها في تعظيم النيران، وبعض الناس أثبت نفوسهم أن يعبدوا غير خالقهم، ولكن على أى نحو يعبدون ؟ وبأية وسيلة يتقربون ؟ فأفنوا أعمارهم حائرين لا يدرون ما يفعلون .

على هذا التباين جُبل الناس وفيه نشأوا، وظهر أثره في عقائدهم، وأقوالهم وأفعالهم، وحركتهم وسكونهم .

(٥) ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ .

(١) مزاج الجسم : طباعته التي ركب عليها . (٢) يسير على غير هدى . (٣) القرية والمهتلة .

(٤) خلق . (٥) من سورة هود (١١٨) .

بهذا كان الناس في حاجة قصوى إلى حدود مرسومة لا يتعدونها ، وقوانين عامة يُكَلَّفُونَ العمل بها ولا يتجاوزونها . ولا يقدر على رسم تلك الحدود، ولا وضع هذه القوانين إلا بصيرٌ يختلف أحوالهم ، عليمٌ بتغاير مصالحهم ، وهو الله جلّت قدرته وعظمت حكمته .

ثم هم أيضًا في أشد حاجة إلى من يبلغهم هذه الحدود والقوانين عن الله تعالى ، ويوضحها لهم ، ليميزوا الخير من الشر ، ولا يلتبس عليهم النافع بالضار .^(١)

وهم في حاجة إلى من يهديهم إلى مافيه صلاح دنياهم ، وسعادة آخراهم ، ويشرح الطامعين برضا الله وعظيم ثوابه ، وينذر العاصين بنقصه وأليم عقابه . ولا يقوى على أداء هذا المهم الأعظم إلا أناس رجحت عقولهم ، وسمت صفاتهم : يصطفاهم الله تعالى من عباده ، ويؤيدهم بأمر ليس من مألوف البشر ولا في مقدورهم . وهؤلاء هم الرسل عليهم الصلاة والسلام .

١ - الرُّسُلُ دُعَاةٌ هِدَايَةٌ وَإِصْلَاحٌ

(١) لأنهم يَهْدُونَ الناس بالتفكر في ملكوت السموات والأرض إلى معرفة ربهم ، وَيُصَرِّحُونَهُمْ من صفاته السامية بما يتناسب هو وعقولهم ، ويتكافأ هو ومستوى إدراكهم ، ويدعونهم بهذه المعرفة إلى توحيده وإفراده بالامتثال ، ومراقبته وحده في جميع الأقوال والأفعال .

(٢) ويوضحون لهم العبادات التي يفرضها عليهم ربهم تذكراً لعظمته ، وشكراً لنعمته ، وطلباً لرضائه ، واستدامة لولائه .

(٢) لنصرته وروايته .

(١) يختلط .

(٣) و يقيمون لهم بأمر الله تعالى حدوداً عامة، ويضعون لهم قواعد كلية :
يسئل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم ، ويحْكُمُوا فيها اختصمت فيه عقولهم ومبطلهم ،
وتنازعت مصالحتهم واهوائهم ؛ حتى لا يعتدى قوى على ضعيف ، ولا يضيع حق من
صاحبه ، كما لا تنهد مصلحة عامة في سبيل مصلحة خاصة ، بل يرى الفرد حق الجماعة
فلا يظني عليه ، وتشعر الجماعة بحق الفرد فلا تهضمه .

(٤) و يفرسون في الناس المحبة ، ويثنون بينهم الألفة ، ويعترفونهم مزايا الاتحاد
والتعاون على الخير ؛ فيعطف كبيرهم على صغيرهم ، ويوقر صغيرهم كبيرهم ، ويساعد
غنيهم فقيرهم ، وقويهم ضعيفهم ، ويرشد هاديتهم ضالهم ، ويعلم عالمهم جاهلهم .
(٥) يَسْمُونَ بهم الناس إلى معالي الأمور ، ويتأون بهم عن سفاسفها ؛
وفي ذلك التحلى بالأخلاق النبيلة ، والتخل عن كل رذيلة ، مع تفصيل كل ما يؤهلهم
لرضا الله ، وما يعرضهم لسخطه .

(٦) يثنون الناس بيوم القيامة :

(يَوْمَ يَعْشُرُكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا . أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ . وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *) (١) . (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ *) (٢) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ *) (٣)

و ينجز الرسل دعوتهم بالترغيب في ثواب الدار الآخرة الذى أعته الله للطائعين

في جنة النعيم ، والترهيب من عذابها الذى أعته للعاصين في نار الجحيم .

(١) يعدهونهم عن الدنيا . (٢) من سورة المجادلة (٦) .

(٣) من سورة الزلزلة (٧ و ٨) .

وليس من مهام الرسل البحث في تفصيلات العلوم المختلفة، وما ورد في كلامهم
أو في الكتب المنزلة عليهم من الإشارة إلى هذه العلوم فلا مبرر:

(١) التدبر في آيات المبدع الحكيم؛ زيادة في البصرة، وإدامة للتذكرة، وتطهيراً
للقلب، وتصفية للنفس.

(ب) توجيه النظر إلى البحث في هذه العلوم والوقوف على حقائقها؛ تنمية للعارف،
وتوسعة للدارك. وفي ذلك تشجيع للعلم ونهوض بالعقل.

٢ - مَا يَعْتَرِضُ الْمُصْلِحِينَ فِي سَبِيلِ دَعْوَتِهِمْ احتمالهم الأذى، وثباتهم على مبادئهم

الدعوة إلى الإصلاح ليست من الهنات الهيئات، بل من الأمور الشاقة العسيرة:
التي يحتاج حمل لواثها إلى نفوس كبيرة: لا تبالي ما صادفها من صعاب، ولأما اعتراضها
من عقاب، لأن هذه الدعوة لا تثبت إلا حيث العادات القبيحة المتغلغلة في النفوس،
والأخلاق السيئة المتمكنة من الأئمة، ولا توجد إلا حيث يعم الجهل، وتنفش
الفساد^(١)، ويتفش الفساد. فعند ظهور نور الدعوة تنور ثائرة العادات الرديئة،
والأخلاق الويئة، ويستخدم غضب الجهالة الجاهلاء، والسفاهة العمياء، ويهيب أصحابها
يسئون السبل على صاحب الدعوة، ويمطرونه وابلاً من الإيذاء على اختلاف ضروبه
وتعدد ألوانه، ولا يفكرون^(٢) عن وضع العراقيل؛ ليحولوا بينه وبين قصده النبيل.

(١) الانجذاب بالنفس والتناول على الأعران والتكبر.

(٢) لا يسكنون ولا يصفون.

عن وضع الصعاب.

ولكن أصحاب الدعوة عظماء، فلا الوعد يُفريهم، ولا الوعيد يُثنيهم، ولا الاستهزاء يزعمهم، ولا الإيذاء يردعهم، ولا الجحود الكثرة يمنهم، بل هم في دعوتهم ماضون، وعنها لا يحيدون، وعليها ثابتون، وبنصر الله واثقون .

وخير مثال هؤلاء المصلحين الرسل عليهم الصلاة والسلام، جاءوا أممهم بنور الهداية، وهم في ظلام التوابع يعمهون، وفي قيود الرذائل يرسقون^(٢)، وفي تيه الفساد يضلون، فأهابوا بهم^(٣) ليُخْرِجُوهم من الظلمات إلى النور، فهب أكثرهم لا يطيعوهم، بل ليصتوهم، وما تركوا باب إيذاء لهم إلا ولجؤه، ولا سبيل إساءة إليهم إلا سلكوه: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ^(٥)﴾ .

ذلك والرسل عليهم السلام كرواسي الجبال، لا يأس ولا كلال ولا ملال^(٦)، بل أمل ونشاط وإقبال، على ما ينتشل القوم من مهاوى الضلال .

٣ - نوح عليه السلام

لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى توحيد الله وطاعته ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، ويُبصِّرهم بآيات الله في خلقهم، وخلق السموات والأرض والشمس والقمر .

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَىٰ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَىٰكَ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدَى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ^(١١)﴾ .

- (١) في الضلالة يغيرون . (٢) يشنون مشى المقيد . (٣) دهرهم . (٤) نهض . (٥) ليقتلوه . (٦) نصب . (٧) سامة . (٨) الجماعة، والأشراف . (٩) أساقفا . (١٠) ظاهر الرأي أى ما يظهره أظلام غير تفكر . (١١) سورة هود (٢٧) .

(١) واستمر نوح يقيم لهم الحجة تلو الحجة، ويدعوهم إلى ربهم؛ ليغفر لهم ما فرط من ذنوبهم، وهم يبالغون في إعراضهم عن الإصغاء إلى كلمة الحق، والنظر إلى الطريق القويم؛ فكانوا كلما رأوه مقبلاً لإرشادهم .

(جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْصَمُوا بِأَيْمَانِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا*) (٢) (٣) (٤)
ولم يقف أمرهم عند حد الإصرار والاستكبار، بل آذوه وأفرطوا في إيذائه؛ فقد قيل : إنهم كانوا يضربونه حتى يشقى عليه، وهو مع ذلك مصر على دعوته، دائب في بذل نصيحته، وتبليغ رسالته، وتحذيرهم مقت الله وقمته . (٥) (٦)

ولما رأوا أن استمراءهم لا يرده، وأن إيذاءهم لا يصده :
(قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا قَالْنَا إِنَّمَا تَعْدِنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصِيحِي إِن أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنَّ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُفْوِيَكُمْ * هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ*) (٧) (٨) (٩) (١٠)

الشكوى :

واتضح لنوح أنهم بغاوتهم متمسكون، وعن إيذائه لا يرجعون، فتوجه إلى ربه يرجون منه تفريح كربه :

- (١) سبق . (٢) تغلوا بها . (٣) أقاموا على المصبة .
(٤) سورة نوح (٧) . (٥) مجتهد . (٦) بفضه، وقمته : عقابه .
(٧) خاصمتنا وناقضتنا . (٨) بغائين الله أي لا تقدر على الحرب معه . (٩) يضلكم .
(١٠) سورة هود (٣٢ و ٣٣ و ٣٤) .

(رَبِّ اِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُوَ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَنْزُلْ عَلَيْنَا الْهَمَّكُم وَلَا تَنْزُلْ عَلَيْنَا سُلُوكًا وَلَا يَنْفُتْ وَيَقُوتْ وَتَسْرَا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا *)

الخطبة الأخيرة :

أخبره الله تعالى بعد هذه الشكوى بأن الكثرة قد كتبت عليها الشقاوة، فلن يجيب دعوتَه إلا القليل الذي أجابها من قبل ، وأمره بصنع الفلك ؛ لأنه سيفرق الظالمين : قال تعالى في سورة هود :

(وَأَوْرِي إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا . إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ * وَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلِّمَ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ تَسَخَّرُوا مِنْهُ . قَالَ إِنْ تَسَخَّرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَّرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ . وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ أَرَبِئُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ يَجْرِيهَا وَمُرسَلَهَا . إِنَّ رَبِّي لَقَوْدٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ *)

- (١) طغيانا وكفرا . (٢) ظلمًا جدًا بالكذب والابذاء . (٣) لا تترك . (٤) ودوما بعده : أسماء أصنامهم . (٥) سورة نوح (٢١ - ٢٤) . (٦) أخبره الله . (٧) تحزن . (٨) يحفظنا . (٩) أمرنا . (١٠) يبيته أو يهلكه . (١١) يزل عليه عذاب دائم . (١٢) وجه الأرض .

عطف الوالد وعقوق الولد :

في أثناء هذا الهول المروع ، وانخطف المفرع ، والأمطار الهاطلة ، والعيون المتفجرة والأمواج المتلاطمة ، والريح العاصف ، والبرق الخاطف ، والرعد القاصف — في أثناء هذه القيامة القائمة لم يتخلَّ نوح عن عطفه الأبوي على ابن له عاق لأبوته ، جاحد لرسائه ، فدعاه إلى سفينة النجاة ، ولكن غلبت على الولد شقوته ، فلم يُجِدْ معه عطف الوالد ولا شفقتة ولا نبوته ، والإسعاد والإشقاء بيد خالق الأرض والسماء .

قال تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ : يَبْنِيْ أَرَكَبٌ مُّعْنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَتَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَخْسِفُنِي مِنَ الْمَاءِ . قَالَ لَا حَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ . وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يٰنَارُ أَتَبْلِيْ مَاءَكُمْ وَيَسْمَأُ أَقْلِي وَيَغِيْضُ الْمَاءَ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخٰسِرِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي نَادَيْتُكَ بِرَحْمَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَتَفَرَّقَ لِي وَرَحْمَتِي أَكُنْ مِنَ الْخٰسِرِينَ * قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّا مَكَ . وَامْ مِّنْهُمْ مَّنْ يَّهْتَدِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَّضِلُّ وَمَنْ يَّضِلُّ فَلَا يَأْتِي الْهَادِينَ * ﴾

- (١) سألنا . (٢) يعني من الفرق . (٣) حيز . (٤) أمسك وامتنع عن المطر .
(٥) ذهب في الأرض . (٦) وقتت وورث . (٧) اسم الجبل الذي رست عليه . (٨) دلا كما .
(٩) الجبال لك واعتصم بك . (١٠) انزل من السفينة . (١١) سورة هود (٤٢ — ٤٨) .

٤ - إبراهيم عليه السلام

إن من يتأمل قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام يتجلى له المثل الأعلى بارزاً للعقيدة الراضية ، والإيمان الثابت : الذى لا يؤثر فيه أشد ضروب الإيذاء ، ويأسس المحجج القاطعة ، والأدلة الناصعة : التى تأخذ السبيل على أشد الناس جدالاً ، وتندرج بالدم خصومة إلى التسليم ، لولا القباوة ، وسبق الشقاوة :

دعا قومه إلى هجر عبادة الأوثان ، وتوحيد الملك الديان ، وأنه لا يليق بذوى العقول والأبصار ، أن يعبدوا إلا النافع الضار ، فوجه نظرهم إلى الكواكب ، ثم إلى القمر ، ثم إلى الشمس ، وأن هذه أنفع من أصنامهم ، وأجدر منها بالعبادة ، لولا أنها تغيب ، ولا يليق بالخالق أن يغيب عن هداية مخلوقة طرفة عين ، وإلا ضل سواء السبيل ، ثم تندرج من ذلك إلى أن الأحق بالعبادة هو فاطر السموات والأرض ، وحارسهما بعين عنايته دائماً ، وحافظهما من الزوال بالليل والنهار . تأمل ذلك كله فى قوله تعالى فى سورة الأنعام :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرُ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ؟ إِنِّي أَنشَأْتُ الْقَوْمَ لَكِ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ، قَالَ هَٰذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لِي بِهَٰذَا رَبِّي * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ

فَلَمَّا أَفْلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجْهٌ وَجِيهٌ لِلَّذِي قَطَرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَافِقًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *)

ومن حجة العظيمة القوية التي حارمها الخصب ما ذكره الله تعالى في سورة البقرة بقوله:
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ مَاتَهُ اللَّهُ الْمَلَكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ
الْمَشْرِيقِ فَأْتِيهَا مِنَ الْمَغْرِبِ قَبِلَتْ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *)
ومع هذه البراهين الدامغة استمر قومه يحادلونه ويحذرونه عاقبة هجر عبادة

الأصنام ، فعجب إبراهيم من هذا التحذير قائلاً : من أحق بالاطمئنان ؟ المؤمن
بالله الذي خلق كل شيء ، والذي لا يحدث في ملكه إلا ما يشاء ، أم من أشرك به
من لا ينطق ولا يسمع ، ولا يضر ولا ينفع ؟ عجبا لكم ! تطلبون مني أن أخاف
أصنامكم ، ولا تخافون الذي خلقكم ! إن أولى الناس بالآمن والاطمئنان ،
المؤمنون انخالصوا الإيمان . اقرأ ذلك بوضوح في قوله تعالى في سورة الأنعام :
(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ . قَالَ أَتُحْجِّجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ . وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا . وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا . أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ
مَا أَشْرَكْتُ وَلَا تُخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ، قَائِلُ الْفَرِيقَيْنِ
أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ؟ إِنَّ كُفْرَهُمْ تَعَلُّوْنَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ
سُوءُ الْأَمْنِ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *)

(١) ما تلاه الدين الحق . (٢) جادل . (٣) أخطأ . (٤) فدعش
وتحير واقتطعت حجة . (٥) القاهرة للخصم . (٦) حجة وبرهانا . (٧) ولم يخلطوا .

الْعَزْمُ عَلَى تَكْسِيرِ الْأَصْنَامِ :

تمادى القوم في عصيانهم على رغم حجج إبراهيم البالغة غاية القوة، فَبَيَّتَ النية على خطة عملية، هي تكسير أصنامهم؛ ليقم لهم حجة أخرى على أن آلهتهم لا تقوى على الدفاع عن نفسها، ولا على الإخبار عن هشمتها ،

(جَعَلَهُمْ جُذُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا قَتْلَ يَدُكُمْ يُقَالُ لَهُوَ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا قَاتُوا بِهِ عَلَى آصِينَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يُشْهِدُونَ * قَالُوا مَا أَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ حَلَمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْظِقُونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفْ لَكُمْ وَلِيَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ * .

فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب، فكروا في أقسى أنواع العقاب ، فبنوا بيتا، ومكنوا مدة طويلة يجمعون فيه صلاب الحطب ، وأصناف الخشب ، ثم أشعلوا نارا عظيمة ، كادت الطير تحترق من وهجها ، وألقوا إبراهيم فيها مقيدا مغلولا، فترع الله عنها ما طبعها عليه من الحرارة والإحراق ، وأبهاها على الإضاءة والإشراق، ولم يظهر طبعها في الإحراق إلا في فك الوثاق، قال الله تعالى :

(٢) فكروا .

(٢) ظاهر أأمامهم .

(١) قاتوا أى قتلوا .

(٥) قبطا .

(٤) رجعوا الى كفرهم .

(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ *)

يقين راسخ وثقة بالله لا حد لها

أتى الكفار إبراهيم عليه السلام في نار ملتهبة، وجم متأججة، فقابل ذلك يقين وثقة عظيمين يتجلبان في قوله حيناً رموه : «حسبي الله ونعم الوكيل» .

ثم تأمل هذا الإيمان القوى، وقف عنده إجلالاً، إذ قال له جبريل عليه السلام وهو في النار : هل لك حاجة؟ فقال : أما إليك فلا . قال : فاسأل ربك قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي .

الحق أن ذلك موقف يدعو إلى الإعجاب : أهول ألوان العذاب يقابل بأعظم يقين وأثبت إيمان، وأسمى ثقة واطمئنان، ولذلك استحق صاحبه أن يكون خليل الرحمن .

الإيمان الخالص كما يصفه الخليل

قال الله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْخِفْني بِالْمَلَلِينِ * وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدِّيقٍ فِي الْأَخْيَرِينَ * وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ

(١) سلامة ونجاة . (٢) مكراً عظيماً في الإضرار به . (٣) يهتني .

(٤) كما لا في العلم والعمل به يؤهل للرياسة . (٥) ثناء حسناً في الدين يأتيون بهدي .

جَنَّةِ النَّعِيمِ • وَأَغْفِرْ لِأَيِّ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِّينَ • وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ •
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ • إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ^(١) •

ذلك هو الإيمان الخالص الذي من اتصف به لا تزعمه الشدائد مهما عظمت، ولا تزعمه الحوادث مهما جلت . وقد كان حادث إلقاء إبراهيم في النار تجربة عميقة، وحجة قوية على أن أوصاف الإيمان التي ذكرها عقيدة راسخة في نفسه، متغلغلة في سويداء قلبه، مختلطة بلحمه ودمه، لا كلام أجوف إذا هبت رياح الحوادث كشفت القناع عن كذبه .

حِلْمٌ وَبِرٌّ

لا يسعنا أن نترك الكلام على ذلك الرسول الكريم دون أن نشير إلى ما كان عليه من حلم واسع، وعطف كبير، وبر عظيم بوالده، وإشفاق عليه، ورحمة به، على رغم ما كان يقابله به أبوه من غلظة وقسوة وعنف : نتجلى هذه الصفات كلها في دعوته إلى الإيمان، ومحاورته في توحيد الله، واستغفاره له بعد إبانته وتهديده .
قال تعالى في سورة مريم :

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا • إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ يَتَّبِعْتَنِي • مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُفِي عَنكَ شَيْئًا • يَتَّبِعْتَنِي أَنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا • يَتَّبِعْتَنِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ

(١) خالص من الشرك والفاق . وهذه الآيات من سورة الشعراء (٧٨ - ٨٩) .

(٢) مبالغة من الصدق أي إنه عظيم الصدق ملازم له مبالغ فيه . . (٣) طريقا مستقيما .

لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَنَابِتُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ
وَلِيًّا ^(١) * قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ مَا لَمَحْتُ بِلَأِبْرَاهِيمَ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ، وَأَهْجُرَنِي ^(٢)
مَلِيًّا، * قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * ^(٣) ^(٤)

واستمر سيدنا إبراهيم يستغفر الله لوالده وفاء بوعده، إلى أن تجل له أنه لن يؤمن،
وأن الشقاوة قد سبقت عليه، فامتنع عن الاستغفار له وتبرأ منه . قال تعالى
في سورة التوبة (١١٤) :

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَصَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ
عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ *) ^(١) ^(٢) ^(٣)

صبر وجلد وطاعة

أمر سيدنا إبراهيم في الرؤيا — ورؤيا الأنبياء وحى — أن يذبح وحيدته،
وفيلة كبده الذي رزقه بعد أن مسه الكبر، فأخبر بذلك ولده؛ ليتعزف ما عنده
من الصبر، إذا ما أنفذ فيه الأمر، وليبثه لقبوله، ويوطن نفسه على حصوله،
فوجد فيه نفساً مطمئنة، وصبراً جميلاً، وتسلياً نبيلاً، وجلداً لم نزله مثيلاً؛ فاستعد
الوالد لتنفيذ الأمر الإلهي بإيمان في الذروة، وعزيمة في نهاية القوة، وهمة هي مظهر
لصبر مقطوع النظير، وجلد يضرب به المثل، وطاعة بالغة قمة التسليم، كان جزاؤها
فداء إسماعيل بذبح عظيم، والبشرى بإسحاق نبياً من الصالحين .

-
- (١) ناصراً وقريناً في النار . (٢) دهماً طويلاً . (٣) لا أميك بمكره، لك مني
الآمان . (٤) مبالغ في إكراهي والمنايا بأمرى . (٥) كثير التضرع والدعاء .
(٦) صبور على الأذى .

وإليك لعمر عليك أن تسبر الغور البعيد المدى الذي بلغته هذه الصفات العظيمة عند الذابح والذبيح ، فهما فيها ميان ، وفرسا رهان ، وطبك قراءة هذه القصة في القرآن ؛ لتلمس هذه الخلال السامية ، قال تعالى في سورة الصافات (١٠٠ - ١١٢) :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * قَبِّرْنَاهُ بِنُحْلٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى . قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا أَتَمَّ وَلَّهُ وَلَٰجِدِينَ * وَنَدَّيْنَاهُ أَنْ يَلْبِسَ بَرَاهِيمَ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَاهُ عَلَيْهِ فِي الْأَحْرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ *)

٥ - موسى عليه السلام

إِلَهُامٌ أَوْ مَنَامٌ :

في أثناء ما كان يعانيه الإسرائيليون من فرعون من الاضطهاد والاستعباد ، وقتل الأبناء واستحياء النساء - في حُلَّةِ هذا الظلام ولد سيدنا موسى عليه السلام ، فأرضعته أمه والأحران تتابها ، والخوف عليه من فرعون يملؤها ، إلى أن ألقى الله في رُوعها أن تضع فلذة كبدها في صندوق محكم تلقيه في النيل ، وأنه سيرده إليها سليماً ،

(١) كبر وأمكته أن يسمى معه ويمنه . (٢) خضعا واطقادا لأمر الله تعالى .

(٣) مره على جبهته ، ولكل إنسان جيتان بينهما الجبهة . (٤) الاختبار الظاهر .

(٥) الذبح : ما يذبح .

ومبجمله عظيماً، فضذهه المقادير إلى قصر من تخشى عليه سطوته، وتخاف بطشه :
 عدو الله وعدوه فرعون، فيعودها اضطرابها، وتعودها وساوسها، وتكاد من شدة^(٢)
 كربها، تبوح بمكنون سرها، لولا أن ربط الله على قلبها، وطلبت من أخيه^(٣)
 أن تقتنى أثره، وتببع خبره، وألقى الله عليه حجة في قلب امرأة فرعون، خالت^(٤)
 بينه وبين قتله، ثم عرضوه على المراضع فأعرض عنهم إلا أمه التي قدر أن تكون له^(٥)
 ظمراً، كي تقر عيناً، وتطيب خاطراً . تقرأ ذلك كله في قوله تعالى :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ، فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ قَالِقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ
 وَلَا تَحْزَنِ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ
 لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَمًا. إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمُّنَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ
 فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ، لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *
 وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فِرْعَا، إِنَّ كَادَتْ لِتَيْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لَتَكُونَ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتِ لِأَخْتِهِ قُصِّيهِ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *
 وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ يَتِيمٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ
 لَهُ نَصِيبٌ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *) [سورة القصص (٧-١٣)]

- (١) السطوة البطش : القهر، والأخذ بعنف . (٢) تداولها . (٣) ثبثها وألمها الصبر .
 (٤) تتبع . (٥) القتر : العاطقة على ولد غيرها المرضعة له ، وأم موسى كانت ترضعه بالأبر على أنه
 ليس ابنها ، فهي ظن بهذا المعنى . (٦) البحر ، والمراد به النيل . (٧) طاصب . (٨) سرور .
 (٩) خالياً من العقل ، أو خالياً من كل شيء إلا من التفكير في موسى . (١٠) لتظهر أمره .
 (١١) اتبع أثره . (١٢) عن بعد . (١٣) يقومون بشأنه .

عظة وعبرة :

في بيت الظلم والطغيان، وفي منزل ادعاء الإلهية ينشأ موسى رسول الله عليه السلام ! سبحانه ! ربى ما أرفع شأنك، وأجل حكمتك، وأعظم قدرتك ؛ تُنبتُ في الجلب الزهرة الزاهرة، وتُنشئُ بين النفوس الخبيثة الأرواح الطاهرة، وتُقِرُّسُ الرسالة، في أرض الجهالة، وتخرج من بين العبودية من يعمل للحرية ! قدرة القاهرة، وعظمة باهرة، قَبِضَتْ لموسى فرعون الطاغية، فاتخذته هو وزوجه ولداً وقرة عين، فترعرع في ساحات رعايته، وفي باحات كتفه وحمايته، وما درى أنه سيكون سبباً في هلكته .

وإذا أراد الله نصرته عبده * كانت له أعداؤه أنصاراً

جناية غير مقصودة :

شب موسى على حظ وافر من القوة العقلية والجسمية :

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَنَفَّ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ، قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ . إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِلْجَرِيمِينَ * فَاصْبِرْ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرْتَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَنفَوٍّ مُبِينٌ * فَلَمَّا

(١) فرقته وطاقته . (٢) ضرب صدره بجمع كتفه . (٣) قتلته .

(٤) عونا . (٥) يستغيث به . (٦) لئلا يظلم الضلال .

أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوُّهُمَا قَالَ يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ
نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْمُصْلِحِينَ * (١)

هجرة وزواج :

بلغ فرعون ما حدث من موسى فاتمروا وملؤه ٤، وصمموا على البحث عنه لقتله :
(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ
فَاتُخَرِّجْ إِلَى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * نَخْرُجُ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنُ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ وَلَمَّا
وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ،
قَالَ مَا خَطْبُكُمَا، قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ، وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا
ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَبَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا
تَمْثِيًا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا. فَلَمَّا جَاءَهُ
وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ، نَجَّيْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا
يَبَا بْتَ اسْتَجِرْهُ، إِنْ خَيْرٌ مِنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ
إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمَثِّي حَجَجَ، فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ، وَمَا أُرِيدُ

- (١) سورة القصص . (١٥ — ١٩) . (٢) يسرع في مشيه . (٣) يتشاورون في أمره .
(٤) قصبه مدين وهي قرية شيب . (٥) جماعة . (٦) تمنعان غنهما من الماء .
(٧) ما شأنكما . (٨) حتى يربح الرعاة من سقيمهم ويصرفوا مواشيهم من الماء .
(٩) ذهب وانصرف . (١٠) اتخذه أجيرا . (١١) تكون أجيرا لي في رعي غنمي .
(١٢) سنين .

أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ . سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَنِي وَبَيْنَكَ ،
أَيُّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا مَدُونَ عَلَيَّ ، وَاللَّهُ عَلَى مَا تَقُولُ وَكِيلٌ * (١)

الرَّسَالَةُ وَآيَاتُهَا :

(فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ
امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ، لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ * (٢)

وهناك على الجبل كلم موسى مولاه ، وأرسله إلى القوم الطغاة ، فقرأ ذلك
في قوله تعالى في سورة الشعراء (١٠ - ٥١) :

(وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنِيتُ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمِ فِرْعَوْنَ . أَلَا يَتَّقُونَ *
قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ
إِلَىٰ هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَادْخُلَا بَنَاتِنَا ؛ إِنَّا مَعَكُمْ
مُسْتَمِعُونَ * فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيَّ
إِسْرَءِيلَ * قَالَ أَلَمْ تُزْبِكْ فِينَا وَلَيْسِدَا وَلَيْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلَتْ
فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ *
فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ
يَهْدِيهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ

(١) أنبئك . (٢) فلانمضى ولا ظلم يطلب الريادة . (٣) شاهد وحفيظ وهذه الآيات
والآية التي بعدها من سورة القصص (٢٠ - ٢٩) . (٤) أبصر من بعد . (٥) الهجرة الملتبة .
(٦) تستخفون . (٧) طفلا . (٨) المنها : تمديد النعم على المنعم عليه ونحوها له .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ وَالْأَسْمِعُونَ *
 قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ *
 قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا
 غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ * قَالَ أَوْلَوْجُتُّكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَاتِ بِهِ
 إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُمْبَانٌ مُبِينٌ * وَزَعَّ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ
 بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ * قَالَ لِللَّيْلِ حَوْلُهُ وَإِنَّ هَذَا لَسَلْحَرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنَ
 أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْسْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ *
 يَا أَيُّكَ بِكُلِّ صَحَّارٍ عَلِيمٍ * بِجَمْعِ السَّحَرَةِ لِيُبْقِيَ يَوْمَ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ
 هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَنْبِغُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْقَائِلِينَ * فَلَمَّا جَاءَ
 السَّحَرَةُ قَالُوا لِيَفْرَعُونَ أَيُّنَا أَكْبَرُ مِنْ هَؤُلَاءِ أَنْ يَكُنْ مِنَ الْقَائِلِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا
 لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقَوَامَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصَمَهُمْ وَقَالُوا
 بَعْزَةُ يَفْرَعُونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ *
 فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهْنَهُمْ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ *
 قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ، إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ *
 لَا أَقْطَعُ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَبُكُمْ أَجْمِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ، إِنَّا إِلَى
 رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَنْطَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ * (١)

- (١) أَرْجِهْ : أَمْرُهُ . (٢) جَامِعِينَ . (٣) الْوَقْتُ الْمَحْدُودُ لِلْفِعْلِ . (٤) بِقُوَّةٍ .
 (٥) يَطْلُعُ . (٦) مَا يَقْلِبُونَهُ عَنْ وَجْهِهِ يَتَوَحَّوْنَهُمْ وَتَزْوِيرُهُمْ فَيُخْلِلُونَ حِبَالَهُمْ وَعِصَمَهُمْ أَنَّهُمَا حَيَاتٍ
 قَسِيٍّ وَكُلَّ أَمْرٍ صَرَفٍ عَنْ وَجْهِهِ قَدْ أَفْلَكَ . (٧) يَذُكُلُ وَاحِدُ الْيَدَيْنِ وَرَجُلُهُ الْيَدِي . (٨) لَا ضَرَرَ .
 (٩) رَاجِعُونَ فِي الْآخِرَةِ . (١٠) ذُنُوبَنَا .

خروجُ بنى إسرائيل من مصر، وغرقُ فرعونَ وجنده :

من حين إيمان السحرة اشتدت وطأة فرعون على بنى إسرائيل، وعظمت
نكايته فيهم ، وتنكيله بهم ، حتى نجحوا بالشكاية إلى موسى ، بل بتقريعه ، فأمره

الله بالسير بهم ليلاً ، قال تعالى في سورة الشعراء (٥٢ — ٦٦) :

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِقُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ
حَاشِدُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ
وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ * فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ
مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى
أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَاتَّقَلَفَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزَلَفْنَا
لَهُمُ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ *)

بلادة وحمق :

بعد هذا الحادث العظيم : حادث انغلاق البحر، وإنقاذ الإسرائيليين من مغالب
الفناء — بعد تلك الآية الكبرى التي كان يجب ألا تنيب عن أذهانهم، وكان يجب
ألا يفكروا بعدها إلا في الله وعظمته وقدرته — بعد مجاوزة البحر وقبل أن يزول

- (١) النكاية كثرة القتل والجراح . (٢) التنكيل أن توقع بمدرك من الآلام والإيذاء .
ما يجعله عبرة لغيره . (٣) فرعوا . (٤) لومه . (٥) سرهم ليلاً . (٦) طائفة .
(٧) مستمعون . (٨) رأى كل منها الآخر . (٩) الطود : الجبل الشاخ .
(١٠) قربنا . (١١) هناك .

أثره^(١) عن أقدامهم، مروا على قوم يعبدون الأصنام، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهًا كما لهؤلاء آلهة، فبالحق وبلادة الطبع وجود الفكر! قال تعالى في سورة الأعراف (١٣٨ - ١٤١) :

وَجَئِزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ . قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَضِرُّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهُهَا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَخْبَرْنَا نِسَاءَ قَوْمٍ لَيْسَ بِكُمْ نِسَاءُكُمْ . وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧)

الطيبات من الرزق :

طَلَبَ قَوْمٌ مُّوسَى مِنْهُ بَعْدَ مَجَاوِزَةِ الْبَحْرِ الْمَاءَ وَالطَّعَامَ وَالظِّلَّ ، فَاجْبِئُوا إِلَى طَلِبِهِمْ عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

((وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَعِيمًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ . وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ فَوَازَلْنَاهَا عَلَيْهِمُ الْمُنَّ وَالسَّلَوى ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *)) (٨) (٩)

- (١) الترى : التراب التدى ، والمراد به هنا الرمل التدى . (٢) عبرنا . (٣) يقيمون على عبادتها . (٤) مهلك من التبار وهو الهلاك . (٥) اطلب لكم . (٦) يكلفونكم ويعملونكم ويذيقونكم . (٧) أشد العذاب . (٨) طلبوا منه السق . (٩) فاقضرت . (١٠) سورة الأعراف (١٦٠) .

غُطَّ النِّعْمَةُ ^(١):

أنعم الله على بني إسرائيل بغذاء طيب، وطعام شهى: ذلك هو المنّ الذى يشبه العسل : ينزل على أوراق الأشجار فيجتنونه كما يُجنى العسل من الخلايا، ومع المن السلوى : وهو طائر كالسَّيَّانِي تَنَالُوهُ أيديهم حينما يشاءون لكثرة . ولكنهم لم يطبقوا البقاء على هذا النوع العظيم من الغذاء، وطلبوا من موسى الطعام الأدنى الذى يلائم طبائعهم التى جبلت على الذلّة والصغار، فأجابهم موسى بأن هذا الطعام الأدنى لا يوجد إلا فى الأمصار : حيث المزارع والحقول، بغدوا فى المسير حتى تهبطوا إحداها، وتناول نفوسكم منها، ولكن لا حياة لمن تنادى .

قرأ ذلك فى قوله تعالى فى سورة البقرة (٦١) :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ بِمُوسَى أَنْ نَصْرِ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ . اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ . وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ^(٢) وَالْمَسْكَنَةُ ^(٣) وَبَاعُوا ^(٤) بِنَفْسِهِمْ ^(٥) أَنْفُسَهُمْ ^(٦) مِنْ أَثَرِ الذِّلَّةِ ^(٧) ﴾ .

غباوة وغفلة :

ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه ، فصنع السَّامِرِيَّ لقومه من حلِيمٍ عجلاً ، وقال لهم : هذا إلهكم وإله موسى ، فعبدوه على رغم نصيح هارون لهم ، وقد أخبر الله

- (١) احتقارها وعدم شكرها . (٢) قمحا ، ثومها ، حبوبها . (٣) أقل وأخس .
 (٤) انزلوا . (٥) جعلت عليهم وأثروها . (٦) الذل والهوان . (٧) فقر النفس .
 (٨) رجعوا . (٩) رجل من قوم موسى صنع لهم العجل وقال هذا إلهكم وإله موسى فعبدوه .

موسى بذلك فرجع غاضباً حاقاً . اقرأ ذلك في قول الله تعالى في سورة طه
(٨٣ - ٩٨) :

(وَمَا آتَاكَ مِنْ قَوْمِكَ بِمُوسَى * قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ
لَتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَيْنِكَ وَأَظْلَهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى
إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيسًا . قَالَ يَلْقَوْنَ آلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْكُمْ وَعِدًا حَسًّا . أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ
الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا
مَوْعِدَكَ بِمِلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى
السَّامِرِيُّ * فَانْجَرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى
فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ
لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَلْقَوْنَ إِبْرَاهِيمَ فَأُتِيتُمْ بِهِ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا
أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى * قَالَ يَهْتَرُونَ
مَا مَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَقَصَبْتَ أَمْرِي * قَالَ يَبْذُوكَ لَا يَأْخُذُ
بِحَبْتِي وَلَا يُرَامِي ، إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِي * قَالَ فَا خُطْبُكَ يَاسَمِيرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ
قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَيْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ
فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ

(١) ابتلينا . (٢) شديد الحزن . (٣) بقدرتنا وأمرنا . (٤) أفتلوا .

(٥) سنسمر . (٦) مقيمين على عبادته . (٧) تخطر . (٨) زيفت .

(٩) لا تمنحني ولا تقرني .

الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ مَآكِفًا ، لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْبِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا • إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ
الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا •)

جِبْنُ وَضْعِ إِيْمَانٍ :

دعا موسى عليه السلام قومه إلى دخول الأرض المقدسة ، فهاوروه محاورة
الجبان الذي ملأ الرعب نفسه ، وأخذ قلبه ، من ضعف إيمانه بالله وفقد الثقة به ،
فَأَمَّافَ ذلك موسى ، وآله المأ شديداً حملة على أن يسأل الله أن يفرق بينه وبين
هؤلاء القوم الذي توالى عليهم النعم ، وتمتدت لهم الآيات ، فلم يتخلوا عن رديء
الصفات وقبيح العادات . ترى ذلك في قوله تعالى في سورة المائدة (٢٠ - ٢٥) :

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ
وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَمَا تَكُنُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ • يَنْقُومُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ
الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ • قَالُوا
يَمْحُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا
فَإِنَّا دَاخِلُونَ • قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنِعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ
فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ غَالِبُونَ • وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ • قَالُوا يَمْحُوسَىٰ
إِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَلِيلُونَ •
قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَنخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ • قَالَ
فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ • فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ •)

(١) دمت . (٢) لنذرية في هوا البحر . (٣) المطهرة . (٤) ولا ترجعوا منهزمين
خوف العدو . (٥) أقوياء ظالم الجسم ، متلين . (٦) فاضل . (٧) يمحرون .
(٨) فلا تحزن .

ما حل بسيدنا موسى عليه السلام من الإيذاء :
 كان فرعون وقومه يُتَوَكَّمُونَ واستكبروا عن إيذاء سيدنا موسى ،
 وكان بنو إسرائيل بغبابتهم وغفلتهم وجود فكرتهم لا ينون عن إلحاق الآلام به ،
 وهاك شيئاً من ذلك :

(١) رماه فرعون وقومه بالسحر والجنون والكذب ، وهدّده بالقتل ،
 وفي الآيات السابقة ما يرشدك إلى الكثير من ذلك ، وقد عاقبهم الله تعالى بكثير
 من أنواع العقاب : تراها في قوله تعالى في سورة الأعراف (١٣٠ - ١٣٦) :

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ * فَإِذَا
 جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ، وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ .
 أَلَا إِنَّمَا طَعَنُوا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ
 آيَةٍ تُسْحَرْنَا بِهَا فَا تَحْنُ لَكَ يَوْمَيْنِ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ
 وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ
 عَلَيْهِمُ الرِّجُّ قَالُوا لِمُوسَى اذْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْـ
 لَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْـ
 لَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ * فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ غَارَ قُلْتُمْ فِي آلِمْ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
 وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ *)

(١) عاقبنا . (٢) القحط والجذب . (٣) الخصب والسمة . (٤) جذب
 وبلاء . (٥) يتناموا . (٦) شؤمهم . (٧) ماء طفى عليهم أروباة عنهم .
 (٨) السوس أنواع من القراد ، أو صغار الجراد . (٩) ميثاق طاهرات . (١٠) الرجز :
 العذاب . (١١) يقضون عهدهم .

(٢) سام فرعون وقومه بنى إسرائيل سوء العذاب ؛ فافرطوا في اضطهادهم وبالفوا في قتل أبنائهم ، واستحياء نساءهم ، قال تعالى في سورة الأعراف (١٢٧) :

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْقُرُونَ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ . قَالَ سَنَقْتُلُنَ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ *﴾ .

(٣) وكان قوم موسى يتحون عليه باللائمة والتقريع ، مظهرين له عدم الفائدة من إرساله ؛ فالعذاب الذى كان يحل بهم ، ويصب عليهم قبل مجيئه استمر بعده ، وكان هو يصبرهم ويصبر على تأنيبهم .

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا . قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ *﴾ .

(٤) رماه قومه بالعيوب الجسمية والخلقية فبأمر الله من جميعها ، وإلى ذلك

يشير الله تعالى بقوله في سورة الأحزاب (٦٩) :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا . وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً *﴾ .

(٥) والحق أن سلسلة إبداء بنى إسرائيل لسيدنا موسى لم تنقطع طوال بقائه

بينهم : فمن قولهم لما عبروا البحر ، ومروا على قوم يعكفون على أصنامهم : ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ، إلى قولهم : ﴿لَنْ نَقْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ ،

(٢) يقبلون .

(١) قادرون غالبون .

(٤) ذا منزلة سامية .

(٣) سورة الأعراف (١٢٨ — ١٢٩) .

إلى عبادتهم العجل حينما ذهب ينادي ربه ، إلى قولهم : ﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبَّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَتِيلُونَ ﴾ . ذلك وغيره كان يصيب سيدنا موسى عليه السلام من بني إسرائيل ، وهو مُتَمَلِّ بالصبر والجلد ، لا يألُو جهداً في نصيحهم وإرشادهم ، طالباً إليهم العدل عن غوايتهم وأذيتهم :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ لِمَ تُوذُونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * ﴾^(١)

٦ - عيسى عليه السلام

بشرى :

نبت السيدة مريم نبأاً حسناً ، ونشأت نشأة صالحة ، ولما بلغت مبلغ النساء رأت - في إحدى خلواتها - منظرًا فزعّت منه ، واضطربت له : رأت فتى جميل الطلعة ، حسن الهيئة يدنو منها ، فتوجّست منه شراً ، وظنت أنه يريد بها سوءاً ، فاستعازت بالرحمن منه ، وذكرته بتقوى الله ، لعله يخشاه ، فذكر لها أنه جبريل أرسله الله ليحب لها غلاماً طاهراً ، فتملكها العجب ، واستبعدت أن يكون لها ولد وليس لها زوج ، وليست بغيا ، فذكرها بعظم قدرة الله الذي يقول للشيء كن فيكون ، وأن ابنها هذا سيكون آية من آيات تلك القدرة الباهرة : يكلم الناس في المهد وكهلاً ، وسيكون ذا دراية ، ورسول هداية ، إلى بني إسرائيل الذين ضلوا سواء السبيل .

(١) لا يترك . (٢) قلبا عدلوا عن الحق أmaal الله قلوبهم عن الهدى .

(٣) سورة الصف [٥] .

وبعد هذا الحديث الذى طَيبَ من خاطرها ، وأفرخ من روعها — نفع
سيدنا جبريل فى جيب درعها . ترى ذلك جلياً :

(أ) فى قوله تعالى فى سورة مريم (١٦-٢١) :

﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ ، وَلَنَجْعَلَ لَكَ مِائَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ .

(ب) وفى قوله تعالى فى سورة آل عمران (٤٥-٤٦) :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يُمَرْمِمْ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمُهَيْدِ وَكَهَلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ .

حمل وولادة :

حملت السيدة مريم فى اللحظة التى نفع الملك فى جيب درعها ، وإنه لحمل غريب ، لكنه ليس ببعيد على قدرة الله تعالى الذى أراد أن يكون هذا الحمل آية

- | | | | |
|------------------------------|-------------------|-------------|-------------|
| (١) أذهب خوفها . | (٢) اعتزلت . | (٣) سترًا . | (٤) جبريل . |
| (٥) تام الخلق . | (٦) طاهرا صالحا . | (٧) كيف . | (٨) فاجرة . |
| (٩) طفلا صغيرا ورجلا كبيرا . | | | |

عظيمة لقدرته العظيمة، فكان كما أراد، ولا معقب لإرادته . حقاً إن ذلك الجمل
الغريب ليس بعزير على من خلق السموات والأرض وما فيها من كواكب ثابتة
لا تُزحَّجُ عن محالها قَدَر ذَرَّةٍ، وأخرى سائرة في أفلاكها لا تحيد عنها قيد أنملة .
وإن كان خَلَقَ عيسى بلا أب عجيباً، فقد خلق الله من قبله آدم بلا أب وبلا أم :
(إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(١)) .
ولما آن أوان الوضع أُلْجِأَهَا الخاض إلى جذع نخلة لتستر به، وتعتمد عليه .
تفكيرٌ وتدير :

تذكرت السيدة مريم حينما أخذها الخاض أنها سَتَرَمِي من قومها بجريرة شليعة ،
وميصمونها بوصم شائن ، فاتتابتها المواجس ، واعتورتها الهموم والوساوس مما
سيقابلها به من لا يعرف براءتها ، ولا يتحقق طهارتها ، وتمنت حينئذ أن لو كانت
لقيت مَيتَها قبل هذا ، أو كانت شيئاً لا يذكر لفافتها ، أو يُنسى لحقارتها ، فطمأنها
سيدنا جبريل ، وأمرها أن تهزَّ جَذَعَ النخلة ، فيسقط عليها الرطب ، فتأكل شيئاً ،
وتشرب من السرى الذي تحتها مريثاً ، وتطيب خاطراً ، وتهبأ بالآ ، وعلما بأنها
إذا قابلها من يلومها ، أو يعيرها ، أو يسألها عن تحمل ، ومن أين أتت به — لا ترد
جواباً ، ولا تدفع لوماً ، بل تقول : (إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا) .

اقرأ ذلك في قوله تعالى في سورة مريم (٢٢-٢٦) :

(لَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ^(٢) إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ
يَلَيْسَ لِي مِثٌّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا^(٣) مَنِيًّا * فَتَادَّهَا مِنْ تَحْتِهَا^(٤) أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ

(١) سورة آل عمران (٥٩) . (٢) سيجونها . (٣) أُلْجِأَهَا .

(٤) وجع الولادة . (٥) شيئاً متروكاً لا يعرف ولا يذكر .

رُبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا * وَهَزَنِي إِلَيْكَ يَجْذَعُ النَّخْلَةُ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا * فَكُلِّي
وَأَشْرَبِي وَفَرِّي عَيْنًا ، فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا
فَلَنْ أَكَلَمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا * (١)

تَهْمَةٌ وَبِرَاءَةٌ :

فلما وضعت السيدة مريم وليدها ، وأتت به قومها تحملها — فزعوا لهذا الخطب
الأيام ، والحدث العظيم ، وانها لوا عليها بالسخرية والتقريع ، على ما أتت من منكر
شنيع ، وإثم فظيع ، ولم يحل بينهم وبين ذلك ما كانوا يعلمون من طهارة منيبتها ،
وطيب نساتها ، وكرم بيتها ، بل كان كرم أبيها وأما ، سبباً في شدة لومها ، وكلُّ
ما عملته السيدة مريم لئلاء هذه العاصفة أنها اعتصمت بوصية جبريل عليه السلام :
فلزمت الصمت ، وأشارت إلى ابنها في المهد طالبة إليهم أن يكلموه ، فاشتد غضبهم ؛
لاعتقادهم أنها تهزأ بهم ؛ إذ لم يعهدوا طفلاً يتكلم في المهد ، ولكن سيدنا عيسى
أسرع إلى براءة أمه ، وقطع السنة السوء ، بما تقرأه في هذه الآيات القرآنية الكريمة
من سورة مريم (٢٧ — ٣٣) :

﴿ فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَحْرِمٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا * يَأْتِخَتْ هَرُونَ
مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ
مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَتَنَّى الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي

(١) السرى : الجدول : وهو النهر الصغير . (٢) الجنى : الثمر الذي جنى من ساعه والجنى
أيضا الفرض الطرى . (٣) امتناعا عن الكلام . (٤) تناجروا . (٥) عجيا ، ظفيا ، متكرا .
(٦) ياشيبة هارون في اللغة ، وكان رجلا صالحا . (٧) قبح وفساد .

مُبَارَكًا أَبْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَيْتُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيَّ وَلَمْ
يُجْعَلِي جَبَّارًا شَقِيًّا * (٢) (٣) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * (٤)

الرَّسَالَةُ وَأَيَّاتُهَا : (٤)

حاد بنو إسرائيل عن القصد، وجاوزوا الحد، وضلوا الطريق السيوى : (٥)

((كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ *))

اتَّعَمَّسُوا فِي الشَّهَوَاتِ، وَأَفْرَطُوا فِي اللَّذَاتِ، وَاسْتَفْرَقُوا فِي جَمْعِ الْمَالِ مِنْ حِلِّهِ
وَمِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، وَاسْتَبَاحُوا الْمُحَرَّمَاتِ؛ فَحَزَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كَثِيرًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ : قَالَ تَعَالَى
فِي سُورَةِ النَّسَاءِ (١٦٠، ١٦١) :

((فَيُظْلِمُ مَنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا طَيِّبًا طَيِّبَتِ أَحِلَّتْ لَهُمْ وَيَصْدِهِمْ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ *
وَأَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *)) (٦) (٧) (٨)

وقد جعل الله سيدنا عيسى لقدرته آية، وأرسله لمؤلاء القوم رحمة، يعصمهم
من نزغات الشيطان ، ويسير بهم في سبيل الرحمن، ويبين لهم ما اختلفوا فيه من
الحلال والحرام ، ويحلل لهم بعض الذي حرم عليهم، وأيده بالمعجزات ، والآيات
البيّنات .

- (١) محسن إليها . (٢) متكبرا . (٣) ماحيا . (٤) علاماتها وأدلتها .
(٥) مالوا وبعدها . (٦) الرشد . (٧) هم اليهود . (٨) وبمنهم .
(٩) أعددا .

تأمل ذلك في قوله تعالى في سورة آل عمران (٤٩-٥١) :

(وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأَبْرَأُ الْأَكْمَهَ ^(١) وَالْأَبْرَصَ ^(٢) وَأَخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأَتَّبِعُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْعُونَ فِي بُيُوتِكُمْ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَمَصَدَقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ . وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ^(٣) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ . هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ *)

المائدة : ^(٣)

رأى بنو إسرائيل هذه الآيات الفاطمة الدلالة على صدق عيسى عليه السلام ،
والتي تبدد بنور يقينها غياهب الشك ، وتبعث بعظيم أثرها الاطمئنان إلى القلب ،
ولكنهم مع ذلك تعتوا ^(٥) — وما عهدناهم إلا متعتين — فسألوا عيسى سؤالاً هالاً ^(٦)
وآله : (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ؟) .

تأمل سيدنا عيسى من هذا السؤال ؛ لأنه — مع صدوره من أنصاره الذين
يعتبرون أرسخ القوم قدما في الإيمان — يدل دلالة واضحة على زعزعة إيمانهم ،
وضعف ثقتهم ، وعدم اعتدادهم بكل ما أقامه من حجج ظاهرة ، ومعجزات

(١) الذي ولد أعمى . (٢) الذي ابيض ظاهر بدنه لقصاد مزاجه .

(٣) الطعام ، والخران عليه الطعام . (٤) الغياهب ، الظلمات الشديدة . (٥) تمتوه :

أدخلوا عليه الأذى . (٦) أغرقه .

باهرة . هذا ما فهمه سيدنا عيسى من خلال سؤالهم ، وهذا ما آذاه من ذلك السؤال ، ف (قَالَ أَتُنْقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *) .

(١) فأتوا في إجاباتهم بما يحقق ما فهمه فيهم سيدنا عيسى : من عقيدة فير وطيدة ، وقلوب خاوية من الإيمان ، ونفوس شرهة إلى ملء البطون : (٢)

(قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ *) .

فلم يسع سيدنا عيسى إلا أن يضرع إلى الله أن يُنزِلَ مائدة تملأ بطون هؤلاء الشرهين ، وتكون آية على كمال قدرة الله وصحة رسالته :

(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *) .

فأجاب الله دعوته ، وحقق طلبته ، متوعداً من يكفر بعد إنزالها بعذاب شديد ليس له نظير :

(قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَتْرُكٌ عَلَيْكُمْ ، فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ *) (٣)

تصديق المسيح بموسى عليهما السلام :

نرى خلال الايات السابقة أن المسيح عليه السلام كان يصدق بموسى ، ويؤمن بتوراته ، وبدهى أنه كان بذلك يدعو بنى إسرائيل إلى أن يصدقوا بما

(١) غير ثابتة . (٢) خالية . (٣) آيات المائدة في السورة المسماة باسمها (١١٢-١١٥) .

يصدق هو به، ويعودوا إلى العمل بالتوراة التي طرحوها وراءهم ظهرياً؛ فالإنجيل دعوة إلى التوراة، مع تفسير اقتضته سنة التدرج البشري : ﴿وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، ولكن أهل الإنجيل قد نجأوا عن إنجيلهم، كما هجر أهل التوراة توراتهم، وتناحر الفريقان، وصارا خصمين لدودين :^(١)^(٢)

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ . كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ *﴾^(٣)

تبشيره بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

كذلك قد بشر المسيح عليه السلام بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وليس للبشرى غرض إلا الدعوة إلى إجابة المبعث به عند ظهوره، والإقبال على دينه لإقبال المرء على تناول ما بُشِّرَ به بسرمة وسرور . قال الله تعالى في سورة الصف (٦) :

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعُنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرُسُوبِ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَحْمَدٌ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ *﴾

وقد وُصِفَ النبي صلى الله عليه وسلم وأمنه في التوراة والإنجيل أوصافاً جليلة : جعلت أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . قال تعالى في سورة الفتح (٢٩) :

(١) تباعدوا . (٢) تناحروا فكاد بعضهم ينحربضاً . (٣) شديدى المصومة .

(٤) سورة البقرة (١١٣) .

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ . وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا
 سَاجِدًا يَسْتَقِيمُونَ فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ
 مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ . وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَنَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَظْلَمَ
 فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ . وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *﴾

وبناء على هذه الأوصاف الجليلة كان اليهود كثيرا ما يذكرون رسول الله
 صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، وأنهم سيتبعونه وسيتصرفون به على الكفار :

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كَتَبَ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ
 عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ *﴾

رفع المسيح :

شأن الاسراءيليين مع الأنبياء الكذيب أو القتل :

﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ *﴾
 ولما رأى كهنتهم ورؤسائهم أن المسيح يُظهِرُ أمرهم ، ويكشف سرهم :
 من بُعِدَ عن الحق ، وَهَجَرَ للدين القويم ، وَحِيدَ عن الصراط المستقيم — تأمروا
 على قتله ، وجدوا في طلبه لصلبه : ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ *﴾ ،

(١) يطلبون . (٢) علامتهم . (٣) فراخه . (٤) قواه وأطاعته .

(٥) غلظ . (٦) قوى وقام . (٧) أصوله جمع ساق . (٨) يستنصرون

على الكفار : يقولون : اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان . (٩) سورة البقرة (٨٩)

فألقى الله مثاله ، على من دبر اغتياله ، فصلبوه ظانين أنه المسيح ، وما دروا أن الله تعالى قد نجى المسيح من أيديهم ؛ فلم يقتلوه ولم يصلبوه .

وليس بعجيب أن يكون لميسى عليه السلام من يقوى شبهه به ، وتستند مماثلته له ؛ فقد ورد في باب تحقيق الشخصيات من كتب الطب الشرعى حوادث كثيرة تدل على أن الناس كثيراً ما يخطئون في معرفة بعض الأشخاص لقوة شبههم بهم . على أن هذا الحادث من خوارق العادات التي أيد الله تعالى بها نبيه عيسى عليه السلام ؛ لينقذه من أعدائه ، فألقى شبهه على غيره ، فخرج من بينهم وهم لا يشعرون .

وقد ورد ذلك في القرآن الكريم صريحا لا يحتمل التأويل :

(١) قال تعالى في سورة النساء (١٥٧ و ١٥٨) .

(وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ . وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ . وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *) .

(٢) وقال تعالى في سورة آل عمران (٥٤ و ٥٥) :

(وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَآهُ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكِيرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فَمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ *) .

ومعنى «متوفيك» آخذك من بينهم لإقناذك، وقَسَرَ ابن عباس رضى الله عنه التوفى هنا بالإماتة العادية، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ ، فهى بشاره من الله لعيسى بنجاته من القتل الذى دبروه له ؛ يموت ميتة عادية .

ومعنى « رافعك إلى » رافع منزلك عندى لحسن بلائك، كما قال تعالى فى إدريس عليه السلام : « وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا » ، ومن اصطفاه الله وقرَّبه إليه يسجى الناس جميعا عن أن ينالوه بالأذى .

ومعنى « مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » منزلك من كل ما يرمونك به من السوء، أو يريدونه بك من الشر .

ومعنى قوله تعالى لعيسى :

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ .

أن من اتبع ما جئت به : من توحيد الله، والتمسك بالفضيلة، وحب الخير للناس — تكون منزلته عند الله فوق منزلة الكافرين الذين عصوا أمرك؛ فضلوا سواء السبيل .

مجد صلى الله عليه وسلم بين الرسل

(١) عموم رسالته

قبيل البعثة المحمدية كانت دول العالم : من الصين والترك ، والفرس والرومان — من الحروب الخارجية والفتن الداخلية في دماء سائلة ، وقوى متخالفة ، وترف وسرف بلغا بالملوك والأمراء والقادة ورؤساء الأديان غايةً من الإفراط ألبأهم إلى إتحال كاهل الرمايا بالضرائب الباهظة ، وخُلِّيَ بين الأقوياء والضعفاء ، فغرمهم أموالهم ، وثمرات أعمالهم ؛ فهم الفقر والذل ، واضطرب حبل الأمن ، وخيَّمت على العقول سماتب الخمول ، وأسَدَلَتْ عليها حُجُبُ الأوهام والأباطيل ؛ إذ حرم الرؤساء على الناس النظر في أمر الدين ، وأوجبوا عليهم الاقتصار فيه على التلق بلا تبيين ، في الوقت الذي كان له من ينابيع الوثنية معين أي معين ؛ فثارت الشبهات على العقائد ، وامتنع تمييز الصالح من الفاسد ؛ فاختلط الدنس بالطهارة ، واشتبه الصلاح بالدعارة ، والتبس الشره بالقناعة ، والتواضع بالوضاعة ، وقد يَلْتَمِسُ رضا الله ، بما تنفر منه شرائعه وتآباه ، ورزى بعض الشعوب بمذاهب فوضوية زاد بها خطبها ، واشتد كرها .

والعرب حينئذ في حيرة ضالدين ، وفي فتنة خابطون : قد استهوتهم الأهواء ، واسترلهم الكبرياء ، واستخفهم الجاهلية الجهلاء ، فهم بين سفك دماء ، وسي نساء ، ووَاد ولألد ، وفساد عقائد ، وأصنام منصوبة ، وأموال مفسوبة .

(١) من الزلل وهو القوط . (٢) الولاد جمع وليدة وهي الصبية ، ووأدها : دفنها حية .

هذا إلى معاملات بقاحش الربا قلت منها الخيرات، ومُنِعَت الصدقات،
وهُضِمَت حقوق الفقراء، وأَكَلَت أموال الناس بالباطل، وفشا الظلم، واختفت
المجاملة، ونَضَبَ معين الشفقة والرحمة، وأَغْفَلَت حقوق الحوار، وفُصِمَت
روابط الإخاء.

وبالإجمال كانت الروابط الاجتماعية عند جميع الأمم في انحلال، والأخلاق
في فساد واعتلال، من قن انقطع فيها جبل الدين، وترعرعت أركان اليقين،
واشتدت الأهوال، وسامت الأحوال، وضاق المخرج، وعمى المصدر، فاهلدى
خامل، والعمى شامل، عُصِيَ الرحمن، ونُصِرَ الشيطان، وخُذِلَ الإيمان في كل
مكان، فانهارت دعائمه، وتكرت معاملته :

((ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي
عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ^(١))) .

فالناس جميعاً حيارى في زلزال، يتطلعون إلى من ينتشلهم من وهدة الضلال،
ويبرئهم مما عم حياتهم من اختلال واعتلال .

وحالة الناس طرأ تستدعى صيحة قوية تنبه الغافلين، وترجع الظالمين، وتهبط
بذوى الزعامة إلى صفوف العامة، ولا تفضل إلا المتقين .

وتتطلب روحاً قوياً يحيا به أموات النذل والهوان، ويتخلص أسرى الازدراء
والاستهزاء، ويردُّ به الأقوياء عن السطو على الضعفاء .

وتحتاج إلى نور ساطع يكشف عن العقول ظلام الخرافات والأوهام؛ لتبين الخير من الشر، والنافع من الضار، ويزيل عنها غياهب الجود، فتفكر فيما بين يديها من الوجود؛ لتتهدى إلى معرفة الخالق المعبود .

وتستلزم نهجاً قوياً يسلكه من حيرتهم الشبهات، ويلزمه من أضلهم الشهوات، وأسرهم قبيح العادات؛ ليصل بهم إلى كل فضيلة، ويعدمهم عن كل رذيلة .
فلما كانت حاجة الأمم قبيل البعثة إلى الإصلاح حاضرة، لافرق بين أمة وأمة، ولا بين ناحية وناحية — كانت رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عامة لجميع الأمم، موضحة نواحي الحياة كافة، شاملة جميع الفضائل التي بها سعادة الدارين .

وهاك بعض الأدلة الثقلية على عموم رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

(١) قال الله تعالى في سورة سبا (٢٨) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * ﴾ .

(٢) قال الله تعالى في سورة الأعراف (١٥٨) : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

(٣) قال تعالى في سورة الأنبياء (١٠٧) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ * ﴾ . وفي أول الفرقان : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * ﴾ .

والمراد بالعالمين : الإنس والجن ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم أرسل إليهما معاً .

(٤) جاء في البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليه سورة الجمعة ، فلما قرأ

«وَأَنزَلْنَا مِنْهُمْ لِمَاءً يَلْعَقُوا مِنْهُمْ» — قال رجل : مَنْ هؤلاء يارسول الله ؟ فلم يراجعني النبي صلى الله عليه وسلم حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، قال : وفيما سلمان الفارسي : فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لئاله رجال من هؤلاء » ، ولهذا قال مجاهد وغيره : هم الأعاجم ومن صدقه من غير العرب .

(٥) روى جابر عنه صلى الله عليه وسلم قال : « أُعْطِيتُ نَحْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبَعَثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرٍ وَأَسْوَدٍ ، وَأَحْلَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهْرًا ؛ فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ حَيْثُ كَانَ ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ » رواه البخاري . وفي رواية « وَبَعَثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً » .

(٦) وفي مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » .

(٢) محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء

جاء الإسلام والفساد عام ، والزائل قائمة ، والفضائل منهتمة ، والقوضى جائمة ، والعقول محجوبة ، والحريات مسلوية ، فلم يدع أصلاً من أصول الفضائل إلا أقامه ووطّئته ، ولا ركناً من أركان الصالحات إلا أسسه وشيّدته ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قوّضها ، ولا ناحية من نواحي الحياة إلا أوضع أمرها ، ولا حالة

من الحالات النفسية والعقلية إلا أبان حكم الله فيها ، ولا سبباً من أسباب الرق إلا أمارت اللثام عنه ، وحث على التعلق به ، ولا وجهاً من وجوه سعادة الدارين إلا أثار سبيله ، وحض على انتهاجه .

فاستجمع للإنسان حرية الفكر ، واستقلال العقل ، وما به صلاح السجايا ، واستقامة الطبع ، وما فيه إنباض العزائم إلى العمل ، وسوقها في سبيل السعى .

ذلك وكثير غيره من كل ما يحتاج إليه الإنسان في معاشه ومعاذه — قررره :
 (كَتَبْتُ أَحْكَمْتُ عَاشْتُهُ ثُمَّ فَصَلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ *) (وَلِإِنَّهُ لِكَتَّابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مَنْ حَكِيمٌ حَمِيدٌ *) .
 تناوله الخلف عن السلف بالتواتر كما أنزل ، محفوظاً حفظاً تاماً بالفاظه وحروفه وكيفية تلاوته وإلقائه .

أنزل هذا الكتاب على نبي أمي خلاله الخاصة والعامة معروفة ، وأعماله مدونة ، وأحاديثه مسطورة ، شاملة ما يحتاج إليه الناس في دنياهم وأخرام ، وأعماله مقرررة ومصدقة لأقواله ، فهي نبراس لبني الإنسان ، يستضيئون به على مدى الزمان .

برسالة محمد صلى الله عليه وسلم قد تبين للجميع الرشد من الغي ، ولم يبق إلا اتباع الهدى ، والارتفاع بما ساقته الرحمة الإلهية لبلوغ الغاية من السعادة . فجاء رسالة أخرى عبث وتكرير ، يتزدهر عنهما الحكيم الخبير .

(١) أتقنت بسبب النظم وديع المعاني . (٢) بينت . (٣) من عند . (٤) سورة هود (١) . (٥) منيع غالب لكل باطل . (٦) سورة فصلت (٤٢) . (٧) قله جماعة مستضيئة يؤمن أفعالهم على الكذب لكثرةهم عن النبي صلى الله عليه وسلم وقيل عن هؤلاء مثلهم ، وهكذا حتى وصل إلينا .

لهذا ختمت النبوات بنبوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، واطّمت الرسالات برسائله ، كما صرح بذلك الكتاب العزيز ، وأيدته السنة الصحيحة .

(١) قال الله تعالى في سورة الأحزاب (٤٠) : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ . وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا *) .

(ب) وفي مسلم عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال : « مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُيْتًا فَأَجْمَلَهُ وَأَحْسَنَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةِ مَنْ زَوَايَاهُ ، فَعَمِلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ ، وَيَعْبُدُونَ لَهُ ، وَيَقُولُونَ : هَلَا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ ، قَالَ : فَأَنَا اللَّبَنَةُ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ » .

(ح) وَرَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال : « بَعَثْتُ لَأَتِمَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » قال ابن عبد البر : وهو حديث مدني صحيح يدخل فيه الصلاح والخير كله ، والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل ، وقد بعث صلى الله عليه وسلم ليتم ذلك كله .

(٣) صلاح الإسلام لكل مكان وزمان

بعد ما تبين من شمول رسائله صلى الله عليه وسلم جميع الأمم — يتضح لنا أن الإسلام صالح لكل مكان ؛ إذ لا يمكن أن يجتمع جميع الأمم في صعيد واحد ؛ فلكل أمة بلادها ، وطأها ، وجوؤها ، وماؤها ، ونباتها ، وحيوانها .

وبعد أن قام البرهان على أن النبي صلى الله عليه وسلم ختم النبيين ، وتم مكارم الأخلاق ، وأخبر أنه لا نبي بعده إلى يوم القيامة — صار من البدهي أن دينه صالح لكل زمان .

فالدِّينُ الإسلامي صالح لكل مكان وزمان .

ولم لا يكون كذلك وقد قام بالأمور الآتية :

(١) أصلح العقائد بتوحيد الله واتصافه بكل كمال ، وتزبيده عن كل نقص ، والإيمان بالبعث والجزاء ، والدعوة إلى الأعمال الصالحة التي تُزَكِّي النفوس البشرية ، وتُفَرِّس فيها الميول الخيرية ، وتُجَنِّث منها الميول الشرية ، وبذلك أنقش الناس من حضيض الرذائل ، إلى أوج الفضائل .

(٢) خَلَّص العبادات من شوائب الوثنية ، وجعلها تتفق مع جلال الله وسموه عن النظائر والأشباه ، مع جمعها بين الروح والجسد ، ومصالح الدنيا والآخرة ، والمتانة واليسر ، والاعتدال ، وبسهولة الفهم .

(٣) شَيَّدَ بناء المعاملات على قواعد كلية تُسْتَبَطُّ منها جزئياتها ، على حسب عرف كل أمة وطائفتها . وأقامها على أساس الفضائل : من صدق ، وصبر ، وحلم ، وصفح ، واتحاد ، وتعاون على الخير ، وعطف ورفق ، ونصيحة وإخلاص .

(٤) أصلح الحكم بالعدل والشورى ، وحَفَّزَ الظلم ، وجَدَّ أولى الأمر في درء المفسد ، وجلب المصالح ، وطاعة أولى الأمر فيما ليس بمقصية ، والنصح لهم ومعاونتهم في كل ما يحفظ الأمن ، وينشر الطمأنينة على الأتس والأعراض والأموال .

(٥) بَيَّنَّ وجوه إقلاق المال الفردية والاجتماعية ، الدنيوية والدينية بما لو اتبعه الناس ما شَكُّوا قَرَأَ مدقماً ، ولا دِيناً مفزاً ، ولا مذاهب متطرفة ، ولا مصلحة مضطربة ، ولا أمتاً مختلاً ، ولا إنساناً متعللاً .

(٦) أثر السلم على الحرب، وأصلح نظام الأخيرة، ودفع مفسادها، وقصرها على ما فيه الخير، وبين قواعدها : من دفع المعتدين، وإقامة الدين، والاستعداد لها لمنعها، والرحمة فيها، والوفاء بالمعاهدات الدولية، وتحريم الخيانة فيها، وجعل الجزية لإنهاء للحرب، لا سبباً لقيامها .

(٧) منح النساء جميع الحقوق البشرية : من دينية ومدنية، وكانت المرأة عند جميع الأمم قبل البعثة يُسَكُّ في إنسانيتها ؛ إذ كانت تُسْتَرَى وتباع ، كالبهيمة والمتاع ، وكانت تُكره على الزواج والبغاء ، وتورث ولا تَرِث ، وتُملِك ولا تَمْلِك ، وكان أكثر الذين يملكونها يُحَرِّمُونَ عليها التصرف فيما تملكه بلا إذن الرجل ، وللزوج أن يتصرف في ماله دونها ، إلى غير ذلك مما أنقذها منه الإسلام .

(٨) رفع الإسلام الظلم والإهانة عن الرقيق ، ورَغَّب في تحريره ، وشرع الوسائل لمنع تجديده، وأوجب الإحسان إليه ، وحض على مساعدته إلى أن يتم تحريره ، وقرر أن المؤمنين إخوة ، وأنهم كالجسد الواحد : إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض أو أحمري على أسود إلا بالتقوى .



ذلك وكثير غيره تراه مبسوطاً في القرآن الكريم، والحديث الشريف، ببارات وأساليب تتناولها الأنعام، ومعاني تسابق الألفاظ إلى الأذهان ، ومقاصد تسارع العقول السليمة إلى تصديقها بلا برهان؛ لأنها في نبلها، وشرف غايتها لا تختص مكان ولا زمان ، ولا بإنسان دون إنسان ، مما يدل على أن الإسلام دين الفطرة

السليمة، والعقل والفكر، والعلم والحكمة، والجمعة والموعظة، والخزينة والاستقلال، وغير ذلك من كل ما فيه سعادة الدارين . فالدين الإسلامى بهذا جدير بأن يكون خاتمة الأديان وأن يبقى على مدى الزمان، لصلاحه لكل أمة فى أى مكان .

٤ — طريقه صلى الله عليه وسلم فى دعوته

وسلوكة الطرق المعتادة فى استمالة الناس إليه

اقتضت إرادة الله تعالى أن ينهض هذا الدين بالعقل، ويسايره من أول خطواته ويدعوه إلى التفكير فى جميع أطواره، ويتدرج بالعلم ويؤيده فى كل أدواره؛ فلم يلجأ إلى الأحداث الكونية التى تعلو الأفهام فترتاب أو تهيم فى ظلمات الحيرة، بل وافق السنن الطبيعية التى يسهل على العقول منالها، ولا يصعب عليها تحليلها .
لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

يظهر ذلك جلياً فى تتبع الدعوة المحمدية ، وتعرف طريقها التى مرت بضروب من الأطوار، وظهرت بأنواع من المظاهر : أهمها الإسرار، ثم الجهر، مع أسبى وسائل الإقناع، والبراءة من دعوى الإلهية والملكية، ثم الهجرة، ثم الحرب، ثم عقد المعاهدات، واستقبال الوفود، ومراسلة الملوك . وسنفرّد بعون الله تعالى كل مظهر من هذه المظاهر بكلمة تبين مقاصده السامية، وحكمته العالية :

المظهر الأول - الإسرار بالدعوة

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمَدِينُ ^(١) * قَدْ فَانَدِرُ ^(٢) * وَرَبِّكَ فَكْبَرُ ^(٣) * وَيَا بَاكَ ^(٤) قَطَرُ * وَالرَّجْزُ فَاهْجُرُ ^(٥) * وَلَا تَمَنَّ تَسْكُنُ ^(٦) * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ ^(٧) *) .

أمر إلى فصل بين عهدين للنبي صلى الله عليه وسلم : عهد العزلة والهدوء ،
وعهد الاحتكاك والجهاد .

أمر خطير ، ومهم شاق ، وطريق وعمر ؛ فإن هذا المهادي المحبوب من الجميع
يتقدم إليهم مُسَفِّهاً أحلامهم ، طائباً أصنامهم ، مُزَيِّفاً عقائدهم التي ألّفوا عليها آباءهم ،
ومزجوا بها لحومهم ودماهم . ولو فجأهم بذلك جبهة لقامت الثورة ، واستطار الشر ،
وفسد الأمر ، ولكن هذا صلى الله عليه وسلم كان نظره بعيداً ، ورأيه سديداً ، هذاه
تدبيره إلى الأناة والروية في دعوته ، فلم يبعثها صرخة عالية تهيج الجماهير ، وتحيي لهم
الفرصة ليكونوا إلباً ^(٧) عليه ، ويذا وحدة ضدّ دعوته ، بل أرسلها هادئة في سكونية
ووقار ، وحذر وإسرار .

ومن البدهي أنه لم يوجهها إلى كل من صادفه ، بل عمد إلى الصفوة ،
الذين يطمئن إلى نقاء ضمائرهم ، وقوة عزائمهم ، ويأسس منازع الخير في قلوبهم ،
ويثق بقلوبهم ، وعظم مكائدهم في قومهم ، ولذلك عني بأن تمثل قيم القبائل

(١) المتخلف بتيابه . أصلها التندثر أدغمت التاء في الدال . (٢) خوف الكفار بالنار
إن لم يؤمنوا . (٣) عظم . (٤) الرجز : العذاب والعرض منه ما يوجب العذاب
من عبادة الأوثان . (٥) لا تعط شيئاً لطلب أكثر منه . (٦) سورة المدثر (١ - ٧) .
(٧) جماعاً واحداً . (٨) ميول .

(١)
والبطون تمثيلاً صادقاً؛ ليكون لهم من ذلك قوة، ويكونوا له نعم الأعوان إذا حزب
الأمير، ولزم الجهر .

ثم دأب على تصفية نفوسهم من كدر الوثنية ، وصقل عقولهم من صداد
الجاهلية ؛ ليكون منهم ساسة المستقبل الذين يسوسون الأمة بنفوس خيرة ، وعقول
نيرة . وعمل على أن يثبت فيهم من روحه وعزمه وحكمته وشجاعته حتى يكونوا له
وللدين دروعاً متينة ، وحصوناً حصينة . وما زال بهم يتفهم ، ويمكن الإيمان
من قلوبهم ، حتى أشيروا بحبه ، وذاقوا حلاوته ، فاستعذبوا العذاب في سبيله .
لبث صلى الله عليه وسلم في هذه الدعوة ثلاث سنين ، أسلم خلالها نحو
الأربعين . بقاء في الدعوة ، وقلة في العدد ، ولكنه بقاء في روية وحزم ، وقلة
في قوة وعزم ، وليس ذلك وقت الكثرة ؛ لأنها لا تخلو من عوامل الضعف ،
وجرائم الرجعية التي تؤثر في الجماعات الناشئة ، فن الحكمة أن يُعنى الزعيم باصطفاء
أصوانه ، ويهتم القائد باختيار أركان حربه ، فلا يشرع كلاهما في الجهر بما يريد حتى
يروض أصحابه على احتمال المشاق ، والتغلب على العوائق .

وهذا شأنه صلى الله عليه وسلم فيمن اختارهم : كانوا في ذروة الشرف من
قومهم ، وفي نهاية القوة من إرادتهم وأخلاقهم ، أسلموا ولم يكن معه صلى الله عليه
وسلم سيف يضرب أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين ، وليس معه ما يرغب فيه ، حتى
يترك هؤلاء العظماء آبائهم وذوي الثروة منهم ويتبعوا الرسول لياكوا من فضل ماله ،
بل كان كثير منهم أوسع منه ثروة ؛ كابي بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم .

والذين آتبعوه من الموالى اختاروا الأذى والجوع والمشاق مع اتباع الرسول ، ولو آتبعوا سادتهم لكانوا في هذه الدنيا أهدأ بالأ وأتم عيشاً . وإنما هي هداية الله غلبت عليهم ، ونور دينه سطع على أفئدتهم ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور .

المظهر الثانى — الجهر بالدعوة

مضى على الدعوة وهى سريةٌ مئةً كافية لوضع أساس متين ، واختيار أعوان مخلصين : يؤسسون فى الوحدة ، ويساعدون فى الشئنة ، ويكونون للمستقبل خير صئةً ، فكان طبيعياً أن تُتبع هذه الخطوة بأخرى ، وأن تُستبدل الجهرية بالسرية ، ولذلك نزل قوله تعالى فى سورة الحجر : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * ﴾ .

أمرٌ قوى بدعوة جهرية قوية ، ومشعر بمقاومة عنيفة : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ تؤذف بقوة الدعوة ، لكنها قوة من الحجّة البالغة ، والإيمان الثابت ، والعزيمة الصادقة ، والثقة العظيمة ، واليقين الراسخ ، وما إلى ذلك من الصفات التى كان صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم مثلاً كاملاً فى جميعها . ونجس عُنْفُ المقاومة من قوله ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وقد كانت المقاومة عنيفة جداً ؛ لأنها فى مكة مباءة الأصنام ، ومعقل الوثنيين الذين يقتدون أوثانهم بأرواحهم ، ويتقربون إليها بدماء أبنائهم .

تقدم ذلك الفرد الأعزل إلا من صفات العظيمة ، يعيب فى صراحة أمة فى عقولها وعقلانيتها ومعبوداتها ، يعلن بينهم كلمة التوحيد ، غير هيب ، ولا عابى

بما سلاق من صعب ، فيطوف على الناس في منازلهم : يدعوهم الى عبادة الله ، ويهجر عبادة الأصنام التي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

وكانه كان بهذا الطواف يبيّهم لاجتماع عام : هو اجتماع الصفا الذي نادى فوقه بطون قريش فأمرعوا اليه ، ومن لم يستطع أرسل رسولا ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « أرايت لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تُغيّر عليكم أكنتم مُصدّقين ؟ » قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » ، فقال أبو لهب : تبّا لك ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله في شأنه سورة :
(^(١) تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ *) .

فأمره الله بمحاولة ثالثة : هي الاجتماع بأقاربه الأذنين : (بنى هاشم ، وبنى المطلب ، وبنى نوفل ، وبنى عبد شمس) أولاد عبد مناف ، قال تعالى في سورة الشعراء : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ *) (جُمِعَ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَالَ لَهُمْ : « إِنَّ الرَّاغِبَ ^(٢) لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لَتَمُوتَنَّ كَمَا تَمَامُونَ ، وَلَتَبْعُنَّ كَمَا تَسْتَبِقُطُونَ ، وَلَتَحَاسِبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَلَتَجْزَوْنَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا ، وَبِالسُّوءِ سُوءًا ، وَإِنَّا لَجَنَّةٌ أَبَدًا أَوْ لَنَارٌ أَبَدًا » .

فتكلم القوم كلاما ليئا غير عمه أبي لهب الذي كان خصما للودا ، فإنه قال : خذوا على يدي قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتموه ذلّتم ، وإن منعتموه قُتِلتم ، فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا . ثم انصرف انجمع .

(١) خسرت وهلكت . (٢) المرسل في طلب الكل .

فهذه محاولات ثلاث في سبيل الجهر بالدعوة : الطواف على المنازل ، واجتماع الصفا ، واجتماع العشيرة . وفيها كان أبو لبب يقابل النبي صلى الله عليه وسلم بما يكره ، وبما جرأ عليه الأبعاد ، فسخرت منه قريش ، وآذوه شديد الإيذاء .

وهذه المحاولات الثلاث — وإن كانت تبدو في ثوب الخذلان — تتطوى على نصر؛ فإنها قرعت أسماع القوم بالدعوة ، وحملتهم على التحلل عنها فيما بينهم ، وعند من لم يحضرها ، وهيات النفوس للتفكر فيها ، وكثيراً ما تنجر الفكرة الى أعظم صبرة ، كما هيات نفوس عشيرة النبي الأدين للدفاع عنه اذا دعت الحاجة ، وقد حقق ذلك أبو طالب في كل مناسبة .

العرض على القبائل :

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم تسلط الفطرية وحمية الجاهلية على قريش ، وأراد الله إعزاز دينه على يد غيرهم — أخذ يخرج الى المواسم العربية (وهى أسواق كانت العرب تعقدها للتجارة والمفانعة) ، ويعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدى رسالة ربه ، فكان بعضهم يرد رداً مليحاً ، وبعضهم يرد رداً قبيحاً .

وفى أحد المواسم تعرض لغنم من حرب يثرب (المدينة) يتلئون الستة ، فدعاهم الى الإسلام ، وإلى معاونته فى تبليغ رسالته ، فعرفوا أنه الرسول الذى أخبر به اليهود ، فأسلموا ووعده بالمقابلة فى الموسم المقبل ، وفيه قدم اثنا عشر رجلاً فأسلموا ، وبأسوا رسول الله على ألا يشركوا بالله شيئاً ، وعلى السمع والطاعة لله ولرسوله ، وأرسل معهم من يقرئهم القرآن ، ويفقههم فى الدين .

وفي العام الذي ولى هذا قدم من يثرب ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان، واجتمع بهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً سرّاً؛ حتى لا تشعر قريش، فيسمعوا في نقض ما أبرم، فقال لهم طيه الصلاة والسلام: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم متى قدمت عليكم، فبايعه الرجال على ما طلب، وتخير منهم اثني عشر نقيباً؛ لكل عشيرة منهم نقيب يكفلها».

وقد انتشر الإسلام في يثرب انتشاراً عظيماً، حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام.

المظهر الثالث - وسائل الإقناع في الدعوة

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَلِّلْهُمْ بِاتِّبَاعِ هِيَ أَحْسَنُ *﴾ .
في سورة النحل (١٢٥) :

وبهذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يكون شعاره في دعوته ثلاثة أمور:
(١) الحكمة - وهي الحجج البالغة، والأدلة الدامغة، التي تثير الحق، وتبديد ظلام الباطل، ولا تدع مجالاً للشك والشبهة. وهذه طريقة إقناع العلماء والحكماء، والطبقة المستنيرة.

(ب) المَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ - وهي النصيحة الممزوجة بالترغيب والترهيب، والتحذير والتبشير، في أسلوب يشعر المنصوح له بالصدق والإخلاص، وقصد النفع. وهذه طريقة إقناع الذين لم يرتفعوا إلى درجة العلماء والمستنيرين، ولم يتزلوا إلى درجة المعاندين والمشاعين.

(ح) المجادلة بالحسنى - وهي إقامة الحجّة في هدوء ودعة، والمناظرة بالرفق واللين . وهذه وسيلة إقناع المعاندين والمعارضين؛ لأنها أجذب لقلوبهم، وأثرفى نفوسهم، وأحمد لثورة غضبهم وأنفتحهم .

فالنبى صلى الله عليه وسلم قرع القوم بالحجج العقلية ، والأدلة الفكرية ، متدزعا بالموعظة الحسنة ، متوسلا بأحسن وسائل المناظرة، وأعظمها أثرا فى استمالة المناظر، مستمداً ذلك كله من القرآن الكريم . وهالك بعض الأمثلة على ذلك :

١ - طَالَبَهُمْ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ :

(١) ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ *﴾ .

سورة البقرة (١٦٢)

(ب) ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، فَإِنِّى

فَارْهَبُون *﴾ . سورة النحل (٥١)

٢ - وَبَرَهَنَ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ بِإِقْطَاعِ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ :

(١) ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا

يَصِفُونَ *﴾ . سورة الأنبياء (٢٢)

(ب) ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابَتَّغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا *

سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا *﴾ . سورة الاسراء (٤٢ و٤٣)

(ح) ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَتَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا

خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ *﴾ .

سورة المؤمنون (٩١)

(١) أنزه الله وأبره من كل قص وسوء .

٣ - دَعَاهُمْ إِلَىٰ عَمَلِ الْفِكَرِ، وَتُوجِيهِ النَّظَرَ، إِلَى مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ عِبَرٍ، لِيَصْلُوا بِذَلِكَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْمُبْدِعِ الْقَادِرِ الْجَدِيدِ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ :

(١) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْحَرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *﴾
سورة البقرة (١٦٤)

(ب) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَشْتَرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوُكُوفِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ . ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ *﴾

سورة الروم (٢٠ - ٢٥)

٤ - مُوَازَنَةٌ :

وَأَزَنَ لَهُمْ مُوَازَنَةً عَقْلِيَّةً بَيْنَ آلِهَتِهِمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى : يَخْرُجُ مِنْهَا مَنْ عِنْدَهُ أَدْنَى بَصِيرَةٍ بِتَوْحِيدِ الْخَالِقِ جَلَّ شَأْنُهُ :

(١) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ . قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ . أَفَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ ، فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ *) . سورة يونس (٣٥)

(ب) ﴿ وَإِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ . قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ *) . سورة الزمر (٣٨)

(ج) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ، أَشْتَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ *) . سورة الأحقاف (٥٤، ٥٥)

٥ - ولما احتجوا بأنهم يحجرون على سنن الآباء قبح هذه المحاكاة العمياء :

(١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ *) . سورة البقرة (١٧٠)

(ب) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا.

أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ *﴾ . سورة لقمان (٢١)

(ج) ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ^(١) وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ *﴾

وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا

وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ * قُلْ أُولَئِكَ جِئْتُمْكُمْ

بِإِهْدَىٰ يَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ *﴾ .

سورة الزمرف (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤)

١ - وَلَئِنْ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ أَقَامَ لَهُمُ الْبُرْهَانُ سَاطِعًا :

(١) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ^(٢) *﴾

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ

لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ . بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ

الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *﴾

فَسُبْحَنَ الَّذِي يَسِيدهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *﴾ .

سورة يس (٧٨ - ٨٣)

(ب) ﴿ق . وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ

الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ مُجْتَبٍ * أَعْذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ، ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ *﴾

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا

بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ
 كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا
 فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَیْجٍ * تَبَصَّرَةٌ وَدِ كَرَى لِكُلِّ
 عَیْدٍ مُنِيبٍ * وَزَلَّنا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ
 الْحَبِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْبَبْنَا بِهِ
 بَلَدَهُ مِثْلًا لِكَذَلِكَ الْخُرُوجِ *)
 سورة ق (١ - ١١)

٧ - وطاب عليهم ظنهم :

(١) (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا . إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا .
 إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ *)
 سورة يونس (٣٦)
 (ب) (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
 سُلْطَانٍ . إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ
 رَبِّهِمُ الْهُدَى)
 سورة النجم (٢٣)

٨ - وطالبهم بإقامة البرهان على ما يدعون :

(١) (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * سورة البقرة (١١١) وسورة النمل (٦٤)
 (ب) (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ
 أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ *
 سورة الأنعام (١٤٨ ، ١٤٩)

(١) مضطرب . (٢) شقوق . (٣) جبالا . (٤) سارحسه .
 (٥) راجع الى طاعتنا . (٦) طويلات . (٧) الطلع : أول ما يبدو من الفرو ويكون
 بعضه فوق بعض . (٨) حجة وبرهان . (٩) تكذيب . (١٠) الصامة .

(ح) ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعْنَى وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي . بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ * ﴾

سورة الأنبياء (٢٤)

هذا قُلٌّ من كُثْرٍ وقطرة من بحرٍ ، من وسائل الإقناع في الدعوة الإسلامية فالنبي عليه الصلاة والسلام كانت محبته وعظته وجداله بالقرآن الكريم ، فهو الحجة التي تبته الخضم العنيد ، وهو الذي كرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وخير وسائل المناظرة ، التي لا تجدى معها المغالطة ولا المكابرة . ولا غرو فالقرآن هو الدعوى والبرهان ، والمعجزة الباقية مابق الزمان .

المعجزة والدعوة الإسلامية :

بالقرآن لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة تلجئه إلى مافوق مقدور الإنسان كما فعل من قبله من الأنبياء : إذا أعوزتهم الحيل أتقذرتهم المعجزات ، ولو أنه التجأ إلى المعجزات في كل أمر حربه لتعذر على مَنْ بَعْدَهُ الاقتداء به ؛ لانقطاع صلتهم بالمعجزات ، ولكنه قد توسل بأنبل الوسائل وأصرحها ، وتذرع بأشرف الذرائع وأوضحها ؛ فكانت سيرته صلى الله عليه وسلم درساً نافعاً ، ووسائله نوراً ساطعاً ، وسبيله نهجاً جَدَّ منيف ، وعمله قدوة لمن يجب أن يدركوا مقاصدهم بالكفاح الشريف .

نعم إن للنبي صلى الله عليه وسلم من المعجزات ما يوازي معجزات جميع الأنبياء أوزيد : ولكنها لم تكن لإثبات رسالته ، بل كانت رحمة من الله بأمتة : كنصر

الجيش القليل المدد والمدد على الكثير فيهما ، وتكثير الشراب والطعام ، وشفاء الأسقام ، وتسخير الغمام ؛ للشرب وتثيت الأقدام .

وأما انشقاق القمر فقد طلبه الكفار تعجيزاً له صلى الله عليه وسلم ، ولما تمت هذه المعجزة أمرضوا وقالوا « سحرة مستمر » وأقاموا بذلك البرهان على إصرارهم على الكفر والطغيان ، ولذلك لما قالوا :

(لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوءًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خَلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَيْلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّىٰ نُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا يَقْرُوهُ)

لما قالوا ذلك وكان تعنتهم واضحاً ، وعنادهم صريحاً ، وتعصّبهم قبيحاً .
أمره الله أن يقول لهم (سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا *)

المظهر الرابع — البراءة من دعوى الإلهية أو الملكية

كان النبي صلى الله عليه وسلم في كل طور من أطوار دعوته يتنزه الفرس لإعلان براءته من دعوى الإلهية أو الملكية؛ حتى لا يتسرب إلى النفوس أو يتطرق إلى الأذهان، أو يلتبس على بعض العقول — أنه يدعى إلهية، أو يطلب ملكاً، أو يتطلع إلى ثروة، أو يتغنى أجراً على دعوته .

وفي القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ما يرشد إلى ذلك ويحليه .

(١) قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ جَنَدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ، إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ. أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ *﴾ .
سورة الأنعام (٥٠)

(ب) وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ. إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *﴾ .
سورة الأعراف (١٨٨)

(ج) وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ .
سورة الكهف (١١٠)

(د) وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *﴾ .
سورة سبأ (٤٧)

(هـ) وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ .
سورة الشعراء (٢٣)

وقد خيره الله بين أن يكون نبيًا ملكًا أو نبيًا جَدًا فاختر الثاني .

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنُ مَرْيَمَ ،
إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ ، فَقُولُوا : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » .

(ب) وخرج صلى الله عليه وسلم مرة على أصحابه متوكئًا على عصا فقاموا ، فقال :
« لَا تَقُومُوا كَمَا يَقُومُ الْأَعْجَمُ : يَعْظُمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا » .

(ج) وقال : « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ أَكَلْتُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ ، وَأَجْلَسْتُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ » .

(د) وعن أبي هريرة رضى الله عنه : دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم ،
فاشتري سراويل ، وقال للوازن : « زِنْ وَأَرْجِحْ » ثم قال : فوثب إلى يد رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقبلها ، فغضب يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ،
ولست بملك ؛ إنما أنا رجل منكم ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله ، فقال :
« صاحب الثنى أحق بشيئته أن يحمله » .

(هـ) جاءه رجل يرتعد خوفاً يوم فتح مكة ، فقال له عليه الصلاة والسلام : « هون
عليك ؛ فإنى لست بملك ؛ إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد »^(١) .
من ذلك يتضح أنه صلى الله عليه وسلم كان في دعوته يفتر من مظاهر الأبهة ،
ولا يتربع إلى وسائل الإغراء ، بالملك أو الجاه أو الثراء ؛ بل جرد نفسه من
كل ما يستمال به الناس ، أو يفهم منه أنه فوق مستوى البشر .

المظهر الخامس

هـ - هجرته صلى الله عليه وسلم

الوسائل التي اتخذها في ذلك ، وحسن حيلته

أثرت مبايعة الأنصار النبي صلى الله عليه وسلم في قريش تأثيراً بعيد المدى ،
أليم الوقع ، ورأوا أن إيذائهم له ولأصحابه على شدته وإغراقهم فيه لم يحل دون
المضى في بث الدعوة وانتشارها ، فاجتمعوا في دار الندوة للنظر في ذلك الأمر الذي
رؤعهم ، وأقض مضجعهم^(٢) ، وبعد تبادل الآراء اتفقوا على أن يجتاروا من كل
قبيلة شابا شجاعا ويرصده هؤلاء الشبان حتى ينأى فيثبون عليه ، أو يخرج من داره^(٣)
فيهمجون عليه ويضربونه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفترق دمه بين القبائل ؛
فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يثأروا له ، فيقبلون الدية .

(١) أهم المشرح طولا . (٢) أقتهم جدًا . (٣) يرقبه .

فأخبر الله تعالى نبيه بذلك، وبالليلة التي عزموا على إنفاذ قتلهم فيها، وأمره بالهجرة إلى يثرب في تلك الليلة، فأمر الرسول على بن أبي طالب بالنوم في فراشه، وغطاه ببردته، إيهاما للقوم بأنه ما زال في فراشه، وقيل على كرم الله وجهه هذه التفدية بنبطة وشجاعة، وبقي النبي صلى الله عليه وسلم في المنزل حتى أرنى الليل سدوله^(١)، ورأى الكرى على أجفان الراصدين، فنفرج وشر على رؤوسهم التراب، وذهب إلى حيث التقى بأبي بكر رضى الله عنه، وسارا حتى بلغا غار ثور.

ولما علم المشركون بخيصة تديروهم، وفساد مكهم، ثارت ثائرتهم، وهاجت عاطفتهم فطلبوه بمكة: أعلاها وأسفلها، وبشوا القافة^(٢) في أثره في كل وجه، وجعلوا مائة ناقة لمن يرده، فوجد الذين ذهبوا قبل ثور أثره هنالك، فلم يزالوا يقتفونه حتى انقطع عنده، فاستبعدوا أن يكون دخل الغار؛ لوجود نسج العنكبوت وبيض الحمام على بابه، وصرف الله أبصارهم عن النظر في الغار، مع أن الواحد منهم لو نظر تحت قدميه لراهما.

وروى أن سيدنا أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إِنْ قُتِلْتُ أَنَا فإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَإِنْ قُتِلَتْ أَنْتَ هَلَكَتِ الْأُمَّةُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا».

وفي صبح اليوم الثالث جاءتهما الراحلتان فركبا إلى المدينة من طريق الساحل، وهو طريق خير مألوف، ونجاها الله من القوم الظالمين، وقابلهما أهل المدينة بأعظم ترحيب.

(١) سنوره: ظلمته. (٢) غلى النوم. (٣) جمع قائف: وهو من يعرف الآثار، وقاف أثره: تبعه. (٤) جهة ثور: وهو جبل قرب مكة.

للعبارة من الهجرة :

(١) أراد الله تعالى ألا ينتشر الإسلام بمكة أولاً؛ حتى لا يُخَذَّ ذلك ذريعة^(١) إلى الطعن عليه بأن قريشاً طمعت إلى الملك، فأوعزت إلى واحد منها أن يدعى هذه الدعوى؛ ليدركوا بذلك أمنيته، بل أراد الله أن يكونوا قوماً لئماً، لم يعرفوا في إيذائه للنبي وأصحابه هواناً ولا حقناً^(٢).

(٢) ظهر جلياً في هذه الهجرة أن الدعوة الإسلامية كانت تسير الأحوال العادية للناس، وتجرى على حسب الأحداث الطبيعية للبشر؛ التي ترتبط فيها الأسباب الظاهرة بمسبباتها، ويظهر فيها التفكير والاجتهاد، ولم يكن اعتمادها على الآيات الكونية المخارقة للعادة، والتي تفوق مقدور البشر، ولا يتناولها إدراكهم؛ فلان النتيجة الطبيعية لمقاومة الدعوة، مع الغلو في إيقاع أشد أنواع الأذى بالداعي - إنما هي هجر البلاد إلى أخرى تمتنع صدرها للدعوة وتكرم صاحبها، وتمتنع مما تمنع منه أهلها.

(٣) تجلّى فيها رباطه جاش النبي صلى الله عليه وسلم وثبات جثائه، وحسن تدبيره وقت ترقب الشبان إياه حول داره، وقد دل على ذلك سعة حيلته، وعظم فكرته، في انتداب عليّ لينام مكانه؛ ليلقى في رُوع القوم^(٣)، أنه لا يزال في فراش النوم، ثم تَلَطَّفُ في الخروج، حتى لا يشعر به الراصدون، مع خطر مهمهم، وعظيم اهتمامهم، وكذلك سلوكه طريقاً غير مطروق كثيراً، واختبأؤه في الغار ثلاث ليال، وهي المدة التي يغلب على الظن أنهم يطلبونه فيها، ثم يتمرب اليأس إلى نفوسهم.

(٤) كانت الهجرة مبدأ عهد جديد لظهور الإسلام وقوته، وانتشاره بسرعة عظيمة دهش لها التاريخ، بعد أن مضت عليه ثلاث عشرة سنة يعاني أقصى ضنك من المشركين، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ممنوع من الجهر بالعبادة، والمسلمون يتجزعون غصص العذاب الشديد، حتى اضطرب بعضهم قبل ذلك إلى الهجرة إلى الحبشة، وسبق معظمهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

وقد آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار أخوة فاقت أخوة النسب، فبدلهم الله بوطنهم وطناً، وبأهلهم أهلاً، وبضعفهم قوة، وبذلهم عزاً، وببغضهم محبة :

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أَوْتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *) .

(١) (٢) (٣) (٤) (٥)

سورة الحشر (٩)

المظهر السادس

الحرب

علبت مما سبق أن شعار الدعوة المحمدية الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة، والنقاش باللين والرفق، مع الاعتصام بالصبر على الأذى، والتأسي بسابق النبيين، الذين قص الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم كثيراً من قصصهم؛ ليثبت بها فزاده، ويربط على قلبه بالصبر، قال تعالى :

- (١) سكنوا المدينة . (٢) حسداً . (٣) يفضلون ويقدمون المهاجرين على أنفسهم . (٤) فقر وحاجة . (٥) ومن يحفظ من يخلقه .

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُو الْقَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ) ، وقال تعالى :
(وَكَلَّا تَقْصُصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا تُنَبِّئُ بِهِ قَوْمَكَ) .

وكان المسلمون في مكة قبل الهجرة يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من
بين مضروب ومشجوج، فيقول لهم : « اصبروا فإنى لم أومر بالقتال » .

وقد أفرط المشركون في بغيهم، وجاوزوا الحد في طغيانهم، إلى أن أثمروا على
قتل الرسول صلى الله عليه وسلم، واضطروهم بذلك إلى الخروج من داره، ومغادرة
أحب البلاد إليه، وألجئوا المسلمين إلى هجر وطنهم، والخروج من أموالهم، وفراق
أهلهم وأولادهم، فكان المشركون بذلك جدد ظالمين، وبالعداء بادئين، وللتأديب
في أول فرصة مستحقين .

فلما استقرت عليه الصلاة والسلام في دار هجرته، واجتمع عليه أصحابه، وصارت
المدينة دار الإسلام ويحضر المسلمون — رخص الله لهم في محاربة المشركين الذين
آذوه شديداً بالإيذاء، وبدءوهم بالعدوان، وأبعدوهم عن الأوطان، قال تعالى
في سورة الحج (٣٩ ، ٤٠) :

(أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ تَصَرُّفِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أَخْرَجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ) .

وقد جاء الترخيص بالقتال في إبانته، لأن المسلمين كانوا بمكة بين المشركين قلة
في كثرة، فلو أمرُوا بالقتال حينئذ لشق عليهم .

وقد أمر الله تعالى نبيه بقتال مشركى قريش بقوله فى سورة البقرة (١٩٠ ،

١٩١) :

((وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ *
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ .
وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ . كَذَلِكَ
جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *)) (١)

وبذلك كان عليه الصلاة والسلام لا يغزو إلا قريشاً ، ولكن لما انضم اليهم
غيرهم من المشركين أَمَرَ بقتالهم جميعاً ، من أى قبيلة ، وفى أى موضع . قال تعالى
فى سورة التوبة (٣٦) :

((وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)) (٢)

ثم كُلف قتالهم ولو لم يبدؤوا بقتال ، محمواً للوثنية ، وإظهاراً لأمر الله ، وإعلاءً
لكلمته ، قال تعالى فى سورة البقرة (١٩٣) :

((وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى
الظَّالِمِينَ *)) (٣)

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا
لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »
وعلى هذا الأساس كان عليه الصلاة والسلام يقبل ما ظهر من المنافقين ، ويدع
ما بطن ، وإن كان لا يأمن جانبهم ، ولا يركن اليهم فى عمل .

(١) وجدتمهم . (٢) الشرك . (٣) تركوا الكفر . (٤) جميعاً . (٥) اعتدوا .

وكان اليهود قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على ألا يجارِبَهُمْ ولا يُؤْذِيَهُمْ ولا يُبْنُوا عليه أحداً، وإن دهمه بالمدينة عدو ينصروه . وبذلك خَلَّى بينهم وبين دينهم، فلما قَضَوْا العهد بمساعلتهم للمشركين أَمَرَ اللهُ بقتلهم : قال تعالى في سورة الأَنْفَال (٥٨) :

﴿ وَإِنَّمَا تَغَفَّرُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَإِنِ بُدِيَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ * ﴾ .

وبذلك وجب قتال أهل الكتاب حتى يسلّموا، أو يقدموا الجزية أذلاء، قال تعالى في سورة التوبة (٢٩) :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ * ﴾ .

(٦٦)
فمن هذا يتبين أن الحرب في الإسلام كانت أولاً انتصاراً من غريش الباغين، ثم امتدت إلى من مَالَاهُمْ من المشركين، ثم عمت المشركين؛ إعلاء لكلمة الله، ولم تَمَسَّ أهل الكتاب حتى قَضَوْا العهد، وعاونوا المشركين، وبعَدُوا عن الدين الحق . وقد حث الله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن على الشجاعة في جهاد الأعداء، ووعد عليه بمجزيل العطاء، قال تعالى في سورة النساء (٧٤) :

- | | | | |
|-------------|------------------|-----------------------|---------------|
| (١) فاجاه . | (٢) اطرع صدم . | (٣) اليهود والنصارى . | (٤) متقادين . |
| (٥) أذلاء . | (٦) تأدياً لهم . | (٧) عاونهم . | |

(تَقِيلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ . وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *) .

كما حذر من الفرار من ميدان الحرب، وأندر من يرتكب ذلك بسوء المنقلب، قال تعالى في سورة الأنفال (١٦، ١٥) :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ قَدْ بَاءَ بِقَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَوَآءٍ جَهَنَّمَ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * (٤) (٥) (٦) (٧)

وقد أوجب الله على المسلمين الخروج إلى الحرب إذا خرج إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما إذا بقي بالمدينة وأرسل سرية فيجب بقاء طائفة للتعقده في الدين، وليعلموا المجاهدين إذا رجعوا إليهم ما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم، فالتفقه في الدين جهاد أكبر؛ إذ الجهاد بالعلم أعظم أثرًا من الجهاد بالسيف، والمقارعة بالمحجج العالمية أساس الدعوة المحمدية . تقرأ ذلك في قوله تعالى في سورة التوبة (١٢٠، ١٢١، ١٢٢) :

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَلُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كَتَبَ

(١) ييمون . (٢) جما عظيما . (٣) فلا تقروا منهم منزمين . (٤) منعقفا . (٥) متظا إلى جماعة من المسلمين . (٦) رجع . (٧) المرجع . (٨) ولا يصونوا . (٩) عطش . (١٠) نصب . (١١) جوع .

لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا أَكْتُبَ لَهُمْ لِحْزِيمُهُمُ اللَّهُ أَحْسَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً . فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ * (١)

المظهر السابع

عقد المعاهدات، ومراسلة الملوك، واستقبال الوفود

(١) عقد المعاهدات :

من أطوار الدعوة المحمدية، والمظاهر التي ظهرت بها عقد المعاهدات: ذلك الأمر الذي لا بد له من عقل كبير، وحسن تدبير، وبصر بعواقب الأمور، وعلم واسع بمقتضيات الأحداث، وتقلبات الأحوال .

وإن المتأمل في معاهدة الحُدَيْبِيَّةِ، التي عقدت في السنة السادسة من الهجرة بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش — لا يدخله أدنى ريب في أنه كان أوسع القوم فكراً، وأبعدهم نظراً، وأسدّهم رأياً، وأسمّاهم سياسة وكياسة؛ إذ لم يعرف التاريخ معاهدة أثمرت أطيب الثمرات — على خلاف ما كان يبدو منها — مثل معاهدة الحُدَيْبِيَّةِ؛ فقد كانت من أعظم الوسائل إلى إظهار دين الله، وتطبيقه الجزيرة العربية :

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد زيارة البيت الحرام، فخرج مع نحو ألف وخمسمائة من المهاجرين والأنصار، فلما وصل إلى الحُدَيْبِيَّةِ (موضع بقرب

(١) ليذهبوا إلى الفزو .

(٢) ليتعلموا .

مكة) أبت قريش أن يدخل مكة على غير إرادتهم، وأبى صلى الله عليه وسلم إلا أن يزور على رغم كل مقاومة . فتفاوض الفريقان ، وانهت المفاوضات بعقد معاهدة على النحو الآتي :

- (١) وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات .
 - (٢) من جاء المسلمين من قريش يردونه إليهم ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون رده .
 - (٣) يرجع النبي صلى الله عليه وسلم من غير زيارة هذا العام ، ثم يأتي العام المقبل فيدخل مكة بأصحابه بعد أن تُخلى له قريش ثلاثة أيام ، فيقيم بها هذه المدة ، ليس مع أصحابه من السلاح غير القوس والسيف في القراب .
 - (٤) من أراد أن يدخل في عهد عهد من غير قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه .
- فاعترى المسلمين من هذه المعاهدة هم عظيم ، ودخلهم كرب شديد ؛ لأنهم رأوا فيها إجحافاً بحقوقهم ، وغضباً من شأنهم ، وقالوا : كيف نرد إليهم من جاءنا مسلماً ، ولا يرتون من جاءهم مرتدداً ؟ فقال عليه الصلاة والسلام :
- «إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً» .

وكان حزن المسلمين لصنعتهم عن الطواف بليغاً ، وثارَت نائرة عمر على المعاهدة ، واحتج عليها احتجاجاً شديداً .

ولكنَّ الأيام أثبتت بُعدَ نظره عليه الصلاة والسلام : وذلك أنه بعد عقد المعاهدة اختلط المسلمون بقرابتهم ومحاباتهم من أهل مكة، وأخذوا يقصون عليهم من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته، وحسن سيرته، وجميل طريقته، ويوضحون لهم مقاصد الإسلام النبيلة، ومبادئه السامية، فخالطت بشاشته قلوبهم، وقذف الله نوره فيها، فبادر كثير منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة، وازداد الآخرون ميلاً إليه، فلما كان يومُ الفتح أسلموا كلهم، ليلاً استقر في نفوسهم من الميل السابق. وإن معاهدة ترم هذه الثمرات الباهرة، وتفسد هذه الفوائد المتظاهرة — لأوضح برهان، على ما للنبي في السياسة من عظم الشأن، وماله من نظري يخترق حجب الأيام، ويمتد على أفق الأعوام .

قال سيدنا أبو بكر — رضى الله عنه — : ما كان فتحُ الإسلام أعظمَ من فتح الحُدَيْبِيَّةِ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يسجلون، والله لا يسجل لمجلة العباد، حتى تبلغ الأمور ما أراد .

يُصَدِّقُ ما ذهب إليه سيدنا أبو بكر نزولُ سورة الفتح على النبي صلى الله عليه وسلم في رجوعه من الحُدَيْبِيَّةِ، وفي أولها يقول الله تعالى :

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) .

ويكفي في الدلالة على رفعة شأنها، وبُعد أثرها أن الله تعالى سماها فتحة مبينة، وأعقبها بصرًا عزيزاً .

(ب) مراسلة الملوك :

كان لمعاهدة الحُدَيْبِيَّةِ فائدةٌ أخرى لا تقل أهمية عما تقدم : فلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمن جانب قريش شرع يوسع أفق الدعوة ، ويتجاوزها بجزيرة العرب فكتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ، فكان يكتب إلى كل ملك بما يناسبه ، وإلى كل أمير بما يليق به ، وكتبه إلى أهل الكتاب تغاير كتبه إلى المشركين وكتبه إلى العرب تباين لهجتها لمجة كتبه إلى غيرهم ، وقد مزجها جميعها بطرف من التحذير والتبشير والرغبة والرغبة ، مما ينهض حجة قوية على حُكْمَتِهِ السياسية ، وجدارته بعموم رسالته .

وقد كتب صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ، وكسرى ، والنجاشي ، ومليك البحرين ، ومليكي عمان ، ومليك الإمامة ، وأمراء بصرى ودمشق ومصر .

وإنا لذا نذكركم لك بعض هذه الكتب لتقوم برهاناً على ما قدمنا :

(١) كتابه صلى الله عليه وسلم إلى قيصر :

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم

يؤتاك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسين .

و(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ

وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا

أَشْهَدُوا بَأَنَّا مُسْلِمُونَ *) .

(١) الأتباع من عبيد وخدام وظلالين وغيرهم .

(ب) كتابه صلى الله عليه وسلم الى ملكي عمان:

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى جَعْفَرٍ وَعَبْدِ ابْنِي الْجَلْدَنَدِيِّ .
سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوكم بدعاية الإسلام ، أسلما تسلموا ؛
فإني رسول الله إلى الناس كافة ؛ لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ؛
وإنكما إن أقررتما بالإسلام وَلَيُنَكِّمَا ، وإن أبيتُمَا فإن ملككما زائل ، وخيل تحمل
بساحتكما ، وتظهر نبؤي على ملككما .

(ح) كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى ملك

البحرين :

بسم الله الرحمن الرحيم . سلم أنت ، فإني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو .
أما بعد فإن من صَلَّى صلواتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم ، له ذمة
الله وذمة الرسول . من أحب ذلك من المجوس فهو آمن ، ومن أبى فإن عليه الجزية .

(ب) استقبال الوفود :

في السنوات الثامنة والتاسعة والعاشر ثابعت وفود العرب من أنحاء الجزيرة
العربية على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأحسن لقاءهم ، وأجزل عطاءهم ، ووسع
صبره جفاءهم ، وما يزال بهم يحاورهم ، وبالدين الحق يبصرهم ، حتى يشرح الله
للإسلام صدورهم ؛ فيألفها من حجة قاطعة ، وسياسة بارعة ، وخبرة بما يستترق
القلوب واسعة ، وبصيرة بما يجذب النفوس ساطعة . وهاك ذكر بعض الوفود
لتحقيق صدق ما نقول :

(١) وفود تميم :

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم من يأخذ الصدقات من بني كعب ، فلم يمكنه من ذلك بنو تميم المجاورون لبني كعب ، فأرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة حاربهم ، وأسرت منها أحد عشر رجلاً ، وإحدى وعشرين امرأة ، وثلاثين صبياً . بغاء في أثرهم وفد من بني تميم ، ونادوا النبي صلى الله عليه وسلم بصوت عال جاف : يا محمد اخرج إلينا فناحرك ؛ فَإِنَّ مَدَحَنَا زَيْنٌ ، وَذَمُّنَا شَيْنٌ . وقد تألم النبي صلى الله عليه وسلم من صياحهم ، وفيهم نزل قول تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ . وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *) . سورة المحرآت (٤ و ٥)

خرج إليهم عليه الصلاة والسلام ، وكان الوقت ظهراً ، فذهب إلى الصلاة فتعلقوا به يقوون : نحن ناس من تميم جئنا يساعينا وخطيبنا نشاعرك وناحرك ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « ما بالشعربعتنا ولا بالفخار أمرنا » ثم صلى الظهر ، واجتمع حوله رجال الوفد يتفانرون .

وقد تغاضى النبي صلى الله عليه وسلم عن خروجهم عن حد الأدب في مناداته من وراء المحرآت ، وعن غرورهم وتفانهم بمجد آبائهم أمام رجل عظيم هم في أشد الحاجة إلى استرضائه بالتواضع والأدب في حضرته ؛ لأن رجالهم ونساءهم وصبانهم أسرى عنده . وما زال بهم عليه الصلاة والسلام في لين ورفق حتى أسلموا ، ورد عليهم أسراهم ، وأجزل عطاياهم ، وأقاموا عنده مدة يتعلمون القرآن ، ويتفقهون في الدين .

(ب) وفود عدي بن حاتم رضى الله عنه :

قال عدي بن حاتم : كنت أمراً شريفاً في قومي ، فلما سمعت برسول الله كرهته :
ما رجلٌ من العرب كان أشدَّ كراهيةً له حين سَمِعَ به مني ، ولمّا علمت أن جيش
محمد قد وَطِئَ البلادَ احتملت أهل وولدي ، والتحقت بأهل ديني من النصاري
بالشام ، وخلفت بنتاً لحاتم ، فُسِيَّتْ^(١) فيمن سَيِّئ ، فلما قَدِمَتِ السبايا على رسول الله ،
وبلغه هربني إلى الشام ، مَنَ عليها وكساها وحملها وأعطاهها نفقة ، وأَقْبَلْتُ إلى الشام ،
ثم أقامت عندي ، فقلت لها - وكانت امرأة حازمة - ماذا تَرَيْنَ في أمر هذا الرجل ؟
قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن كان نبيّاً فللسابق إليه فضيلة ، وإن
يكن ملكاً فانت أنت ، فقلت : والله إن هذا للَرَأْي .

ولما ذهبت إليه قال : مَن الرجل ؟ فقلت : عدي بن حاتم ، فانطلق بي إلى بيته ،
وإنه لقاندى إليه إذ لَقِيَتْهُ امرأة كبيرة ضعيفة فاستوقفته ، فوقف^(٢) لها طويلاً تكلمه
في حاجتها ، فقلت : ما هذا بَعْلِكَ ، ولما دخل بيته تناول وسادة بيده من أَدَمَ حَشَوْهَا^(٢)
لِف ، وقال : اجلس على هذه ، فقلت : بل أنت فاجلس عليها ، قال : بل أنت ،
فجلست عليها ، وجلس الرسول على الأرض ، فقلت : والله ما هذا بأمر ملك .

ثم قال لي : يا عدي بن حاتم ألسنت من القوم الذين لم دين ؟ فقلت : بلى ،
فقال : ألم تأخذ ربح الغنيمة ؟ (كما هو شأن الأشراف في الجاهلية) قلت : بلى ،
قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك ، قلت : أجل والله ، وعرفت أنه نبي
مرسل ، يعلم ما يُجْهَل .

ثم قال : لعلك يا عدى إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليؤشكن^(١) المسال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذهم ، ولعلك إنما يمنعك من ذلك ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليؤشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف . ولعلك إنما يمنعك من ذلك أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وأيم الله ليؤشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم .

قال عدى : وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها تحج البيت .
وقد أسلم عدى رضى الله عنه وحسن إسلامه .

(ح) وفد كندة :

وقد عليه صلى الله عليه وسلم ثمانون من كندة (قبيلة باليمن) فلما أرادوا الدخول عليه سرحوا شعورهم وتكاملوا ولبسوا جبب^(٢) حبرة قد مجفوها بالحرير . ولما دخلوا عليه قالوا : أبيت اللعن ، فقال لهم : لست ملكاً ، أنا محمد بن عبد الله . قالوا لا نسيمك باسمك ، قال : أنا أبو القاسم ، قالوا : يا أبا القاسم ، إنا خباننا لك خبئاً فما هو ؟ (وكانوا خبيثوا له عين جرادة في ظرف ممن) فقال لهم : سبحان الله ؛ إنما يفعل ذلك الكاهن ، وإن الكاهن والكهانة والتكهن في النار ، فقالوا كيف نعلم أنك رسول الله ؟ فأخذ كفاً من حصباء ، فقال : هذا يشهد أنى رسول الله ،

(١) ليقرين . (٢) اسم استعمل في القسم ، من اليمن : وهو البركة . (٣) ثياب
يمانية من صُلب وكتان مخطوط . (٤) ستروها . (٥) أبيت أن تأتي ما ظنن عليه وهي
تحية الملوك في الجاهلية .

فَسَبَّحَ الْحَصَى فِي يَدِهِ ، فَقَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَ : إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بِالْحَقِّ ،
وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، فَقَالُوا : أَسْمَعْنَا مِنْهُ ،
فَقَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * قَالُوا جَرَّتْ زَجْرًا * قَالَتِ بَلَيْتَ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهُكُمْ
لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِيقِ *))

ثم سكت وسكن ودموعه تجري على لحيته ، فقالوا : إنا نراك تبكي ، أَمِنْ مَخَافَةِ
مَنْ أَرْسَلَكَ ؟ قَالَ : خَشِيتِي مِنْهُ أَبْكُنِي ، بَعَثَنِي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي مِثْلِ حَدِّ
السَّيْفِ ، إِنْ زُغْتُ عَنْهُ هَلَكْتُ ، ثُمَّ تَلَا :

((وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا *
إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا *))

سورة الاسراء (٨٦ و ٨٧)

ثم قال لهم عليه الصلاة والسلام : أَلَمْ تَسْلَمُوا ؟ قَالُوا : بَلَى ، قَالَ : مَا بَالُ هَذَا
الْحَرِيرِ فِي أَعْنَاقِكُمْ ؟ فَعِنْدَ ذَلِكَ شَقُوهُ وَقَوُّهُ .

خَاتِمَةُ مَظَاهِرِ الدَّعْوَةِ

هذه أغلب مظاهر الدعوة الإسلامية ، وأهم الأطوار التي تدرجت فيها وهي
أطوار للعقل البشري فيها مجال واسع ، وللتفكير وحسن التدبير في نجاحها فضل عظيم :
فهى من الوجهة العقلية انتصار للعقل لم يعهده من قبل ، ومن الوجهة السياسية

(١) الملائكة تصف قومها في العبادَةِ أو أجنحتها في الهواء تخظما قوم به . (٢) الملائكة
ترج السحاب أى تسوقه . (٣) سورة الصافات (١ - ٥) . (٤) ملت .

خير مثال يحتذيه عباقرة السياسة ، ومن الناحية الحربية خطط قوية يدهش لها نوابغ القسّاد .

ويكفي هذه الطريقة شرفاً عظيماً ، أنها أقامت ديناً قوياً ، وأضاءت نوراً قوياً أخرج الناس من ظلمات الجهل والوثنية إلى نور العلم والتوحيد ، وكونت رجالاً كانوا في جبين الدهر غمرة ، وفي تاج التاريخ أنغردزة ، رجالاً ذوى عقل راجح ، وإيمان راسخ ، وهمة عليّة ، ونفوس أسيّة ، وإرادة حديدية ، لم تزغزغها الحوادث ، ولم تتل منها تقليات الأيام . رفعوا لواء الإسلام وأعلّوا مناره ، وتلّوا عروش الجبابة ، ونشروا العدالة .

وكما كانوا في السياسة والحرب مثلاً كاملة ، كانوا قدوة صالحة في الصفات النبيلة ، والأفعال الجليلة .

٦ - مثل من أخلاق النبي الكريمة

مع الاستشهاد لها بمحادث من سيرته

كان صلى الله عليه وسلم من الأخلاق المحيطة في الذروة ، كما كانت أفعاله المنبثقة عنها خير قدوة . ولا غرو فحسن الأفعال ، مظهر لجمال الخلال ، وجدير بمن بُعث ليتم بناء المكارم أن يكون لها شاملاً ، وفي جميعها مثلاً كاملاً ؛ ولذلك استحق أن يصفه الله في القرآن الكريم بقوله :

(وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خَلَقْتَ عَظِيمٌ *) (سورة القلم ٤)

وإنا لذاكرون لك طرفاً من عظيم خلاله ، لتسج على منواله ، وتحذو حذو فعاله ، فتسعد في الدنيا والآخرة :

(١) شجاعته صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم من الشجاعة بالمكان الأرفع ، والمنزلة التي لا تدفع :
لا تنفزه الحوادث ، ولا تزعزعه الأهوال ، وقد حضر أصعب مواقف القتال ،
وفرّ عنه الكآبة والأبطال ، وهو ثابت ثبوت الجبال .

(١) قال ابن عمر - رضي الله عنهما - : « ما رأيت أشجع ، ولا أبجد ،
ولا أجود ، ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٢) وقال عليّ - كرم الله وجهه - : « كما إذا اشتدّ البأس ، واحمرت الحديق ^{مسدود} ،
اتقينا برسول الله ؛ فإيكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيته يوم بدر ،
ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس
يومئذ بأسا » .

(٣) وقال البراء : « كما إذا احمر البأس نتقى به ، وإن الشجاع منا للذي
يحاذي به » .

(٤) وقال أنس بن مالك : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن
الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ؛ ولقد فرغ أهل المدينة ذات ليلة ؛
فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً ، وقد سبقهم
إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عُرِي في عنقه السيف وهو يقول :
« لم ترأعو لم ترأعو » أي لم يحصل لكم ما يضركم » .

ففي ذلك بيان لشجاعته صلى الله عليه وسلم : من شدة مرعته في التطروح إلى
العدو قبل الناس جميعاً ، بحيث كشف الحال ورجع قبل وصول الناس .

(٥) وقال رجل من قيس للبراء : « أفررتُم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ فقال البراء : « ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر ، وكانت هوازن يومئذ رماة ، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا ، فأكبنا على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهم ، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بقلته البيضاء - وإن أبا سفيان ابن الحارث أخذ بلجامها - وهو يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » . وهذا غاية ما يكون شجاعة وثباتاً ؛ لأنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى (٢) . وقد انكشف عنه جيشه ، وهو مع هذا على بغلة ليست بسرعة الجرى ، ولا تصلح (٣) لركوبها ولا هرب ، ومع ذلك يركضها إلى وجوههم ، وينوء باسمه ؛ ليعرفه من لا يعرفه .

(٦) وكان بمكة رجل شديد القوة يقال له : رُكَّانَةُ بن عبد يزيد يحسن الصراع ، وكان الناس يأتونه من البلاد للصراعة فيصرعهم ، فيينا هو ذات يوم في شعب من شعاب مكة إذ لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ما معناه : ألا نتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه ؟ فقال له رُكَّانَةُ : يا محمد ، هل من شاهد يدل على صدقك ؟ قال : « أرايت إن صرعتك أتؤمن بالله ورسوله ؟ » قال : نعم يا محمد ، فقال له : تنها للصراعة ، قال : تنهايت ، فدنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذه ثم صرعه ، فتمعجب رُكَّانَةُ من ذلك ، ثم سأله الإقالة والعودة ، ففعل ذلك به ثانياً

(١) أقبلنا . (٢) شدة القتال . (٣) يجول الفارس في ميدان الحرب : يذهب فيه عن العدو ويحیی إليه ، فدهابه يسمى : فرا ، ويحييه يسمى : كرا . (٤) يستحبها لتجرى . (٥) بالشعب : الطريق في الجبل أو ما أخرج بين الجبلين .

وثالثها، فوقف ركانة متجيباً، وقال : إن شألك لعجيب . وقد آمن ركانة^(١) ورضى الله عنه .

(٧) وقد صارع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا الأسود الجحى وكان شديداً : بلغ من شدته أنه كان يقف على جلد البقرة ، ويجاذب أطرافه عشرة ليزعوه من تحت قدميه ، فيتفرق الجلد ولم يترجح عنه ، فعدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصارعة ، وقال : إن صرعتني آمنت بك ، فصرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يؤمن .

(ب) صبره صلى الله عليه وسلم واحتماله الأذى

وشبّاه على مبدئه مع ثقته بالله تعالى

لما صدّع الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة كانت قريش يسخرون منه ، وإذا صر بهم يستهزئون : هذا ابن أبي كبشة يكلم من السماء ، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ، والنبي صلى الله عليه وسلم ماض في دعوته ، معرض عن سخرتهم ، خير مبال استهزأهم ، ناصح لهم بترك عبادة الأوثان ، وتوحيد الملك الديان .

وكان عمه أبو طالب يمنحه حمايته ، ويوليه رعايته ، وهو من بنى هاشم في الشرف الصميم ، والمجد القديم ، فأهريج المشركون إليه يشكون عدا ، ويطلبون إليه أن يكفه ، أو يخلّي بينهم وبينه ، فردّهم ردّاً جميلاً .

ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم قائم بدعوته لا يعبأ باحتجاجهم ولا يتحفل بتذمرهم ، ولا يفتأ يعيب آلهتهم ويؤثّر عقائدهم ، في لين ورفق ، وحجة وموعظة

(١) يتفق . (٢) جهر . (٣) أسروا في رعدة . (٤) يتكرم له ويعدّم إياه .

فعظم عليهم الأمر، فخذلوا عليه وتواصوا بالضغينة، وعاودوا الشكوى إلى أبي طالب، ولكن في شدة وتهديد، فإما أن يمنع، وإما أن ينازلوه معه، فعزل على أبي طالب فراق قومه، وأبت نفسه أن يخذل ابن أخيه، فطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يُبقي على نفسه ولا يُجملهُ من عداوة قريش مالا يطيق، فقال النبي: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت، حتى يُظهرهُ الله أو أهلكَ دونه» ثم ولى متأثراً، فهاج ذلك عاطفة عمه، فناداه، فأقبل عليه، فقال: «أذهب ققل ما أحببت والله لا أسلمك».

ورأى المشركون أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يلوى على شيء في دعوته، ولا يعوقه عائق في سبيل إقامة دينه، فأوغلوا في إيذائه، واقتنوا في إبلامه؛ رجاء نكوصه وإحجامه.^(٢)

جماعة المستهزين:

وكان أشنعهم إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة وُصفوا لإغراقهم

في الإيذاء بالمستهزين:

أولهم وأفظعهم أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي: قال يوماً: يا معشر قريش، إن محمداً قد أتى ما ترون: من عيب دينكم، وشتم آلهتكم، وتسفيه أحلامكم، ومسب آبائكم، إني أعاهد الله لأجلسن له غداً بجبر لا أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته رخصت به رأسه، فآسئلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بي^(٣)

(١) يحاربوه . (٢) رجوعه عن دعوته .

(٣) رخصت رأسه (بالحاء المهملة والهاء المعجمة): كسره .

بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم . فلما أصبح أخذ حجراً ، وجلس رسول الله ينتظره ، وغدا طيه الصلاة والسلام كمادته إلى صلاته ، وقريش في أنديتهم ينتظرون ما يفعل أبو جهل ، فلما سجد عليه الصلاة والسلام احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً ، مستقماً لونه من الفزع ، ورمى حجره من يده ، فقام إليه رجال من قریش ، فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قتت إليه لأفعل ماقلت لكم ، فلما دتوت منه عرض لي لخل من الإبل ، والله ما رأيت مثله قط ، ثم بي أن يأكثني ، فلما ذكر ذلك لرسول الله ، قال : ذاك جبريل ، ولو دنا لأخذه .

ومن أذية أبي جهل للرسول ما رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود ، قال :
 (١)
 سخط مع رسول الله في المسجد وهو يصلي ، فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى قرث^(٢)
 جُزور بني فلان فيلقيه على عمد وهو ساجد ، فقام عتبة بن أبي معيط بن أبي عمرو
 ابن أمية بن عبد شمس ، وجاء بذلك القرث فلقاه على النبي صلى الله عليه وسلم
 وهو ساجد ، فلم يقدر أحد من المسلمين على إلقائه عنه ؛ لضعفهم عن مقاومة عدوهم ،
 ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجداً حتى جاءت فاطمة فأخذت القذر ورمته ،
 فلما قام دعا على من فعل هذه الفعلة الشنعاء ، فقال : اللهم عليك الملا من قریش ،
 (وسمى أقواماً) ، فقتل معظمهم يوم بدر .

ومن جماعة المستهزئين أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله : كان أقسى عليه
 من الأباعد ، وكان جاراً للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكان يرمى القذر على بابه ،

(١) الزيل . (٢) الجزور من الإبل خاصة يقع على المد كزالموت ، وقيل : الجزور :

النافقة التي تحمر .

وتشاطره عمله الشنيع زوجته أم جميل بنت حرب بن أمية، فكانت تسب النبي كثيراً، وتختلق عليه الأكاذيب في نوادي النساء، وبخاصة بعد أن نزلت فيها وفي زوجها السورة المعروفة. وأولب هذا هو الذي جبه النبي صلى الله عليه وسلم يوم الصفا بقوله: تَبَّ لك ألهذا جمعنا. وكان يتبع النبي وهو يطوف على المنازل يدعو الناس إلى التوحيد. فيحترضهم على عدم اتباعه.

ومن المستهزئين عُبَيْة بن أبي مُعَيْط: كان الجار الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم، صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: والله لا أكل طعامك حتى تؤمن بالله، فتشهد، فبلغ ذلك أبي بن خلف الجُمُحِيَّ وكان صديقاً له، فقال: ما شئٌ بلغني عنك؟ قال: لا شيء: دخل منزلي رجل شريف، فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يعلم، فشهدت له، قال أبي: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطلعه، وتبرأت في وجهه، وتلطم عينه، فلما رأى عُبَيْة رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجداً فعل به ذلك، فأنزل الله فيه في سورة الفرقان (٢٧ - ٢٩).

(٢٧) (وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنِي أَنَاخُذْتُ مَعَ الرُّسُولِ سَبِيلًا * يَوَلِّيكَ لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي. وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا *).

ومن أفظع أفعال هذا الشقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رواه البخاري في صحيحه، قال: بنينا النبي يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عُبَيْة بن أبي مُعَيْط، فوضع

نوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم نحتقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ * ﴾ .

سورة غافر (٢٨)

ومن المستهزئين العاص بن وائل السهيمى القرشى والد عمرو بن العاص ، ومنهم الأسود بن عباد يغوث الزهرى القرشى من بنى زهره أخوال رسول الله ، والأسود ابن عبد المطلب الأسدى ابن عم السيدة خديجة ، والوليد بن المغيرة عم أبى جهل ، والنضر بن الحارث .

وكل من هؤلاء كان يبذل قصارى جهده في إيقاع أشد أنواع الإيذاء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى كان يبدى من الاحتمال والثبات والصبر ، المشل الكامل مدى الدهر ، والقدوة المثل لمن تابعت عليه الآلام ، وتواصى بإيذائه اللثام .

وقد انتقم الله منهم جميعاً تحقيقاً لصداق وعده ووعيده في قوله :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَمْحُلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * ﴾ .

سورة الحجر (٩٥ ٩٦)

ما لاقاه المسلمون من الإيذاء :

وكما أودى الرسول صلى الله عليه وسلم في نفسه أذى من أصحابه ، لا سيما من ليس له قرابة تمنعه وتصد عنه ، ولكن هذا الأذى كان مذبا عندهم ، مادام في سبيل رضا الله ورضا رسوله ؛ ولذلك لم يزحزحهم أشد ألوانه إيلا ما قيد شعرة

عن الإيمان، بل ثبتهم الله بالقول الثابت، فزجوا حلاوة الإيمان بمرارة العذاب، وكان لهم من هذا المزج قوة رفعتهم إلى مرتبة الملوك بعد أن كانوا أذلاء مستضعفين .

((وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ *)) .
سورة القصص (٥)

ومن أوفوا في الله بلال بن رباح : كان مملوكاً لأمية بن خلف، فكان يخرج به في وقت الظهيرة إلى الرمضاء (رمل شديد الحرارة ينضج اللحم من شدته)، ويطرحه عليها، ويلقي على صدره الصخرة العظيمة؛ ليكفر بحمد ويؤمن بالأصنام، ولكنه كان لا يفتر عن قول : أحد، أحد. وكان يعمل في عنقه حبلاً ويسامه إلى الصبيان يلعبون به ويسخرون منه، فكان ذلك لا يشغله عن كلمة التوحيد يرددها لسانه وجنانه، ودأب أمية بن خلف على إيلاسه؛ كي يزحزحه عن إسلامه، إلى أن اشتراه أبو بكر — رضى الله عنه — وأعتقه فأنقذه من هذا العذاب الأليم .

ومن أعتقهم أبو بكر من كانوا يُعَذَّبُونَ امرأة تُسَمَّى زَيْنَةَ : عذبت في الله حتى عَمِيَتْ، فلم يزدها ذلك إلا إيماناً، وقال المشركون : ما أصاب بصَرَّها إلا الأصنام، فقالت : كلا والله ما هو كذلك، فردَّ الله عليها بصرها .

ومن عُدِّبَ في سبيل الله عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وأخوه وأبوه وأمه : كانوا يعذبون بالنار، فترجم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «صبراً آل ياسر، فوعدكم الجنة، اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت» .

أما أبو عمار وأمه فأتتا تحت العذاب رضى منهما ، وأما هو فاشتكت عليه وطأة العذاب ؛ فإن أبا جهل — لعنه الله — كان يلبسه دروع الحديد في اليوم الصائف ، ويصهره في الشمس ، فقال بلسانه فقط كلمة الكفر ، فقال المسلمون : كفر عمار ، فقال عليه الصلاة والسلام :
« عَمَّارٌ مَلِيٌّ إِيْمَانًا مِنْ فِرْقَةٍ إِلَى قَدَمِهِ » .

وقال تعالى في شأنه وشأن أمثاله في سورة النحل (١٠٦) :
(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مِنْ أَكْثَرِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *) .

ومن الذين أودوا في دين الله خباب بن الأرت : سبي في الجاهلية فاشتريته أم أنمار وكان حداثاً ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلقه قبل النبوة ، فلما شرفه الله بها أسلم خباب ، فكانت مولاه تعذبه بالنار ، فتأقى بالحديدة المحاة ، فتجعلها على ظهره ليرتد ، فلا يزداد إلا إيماناً .

جاء خباب مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، ألا تدعو الله لنا ! ففعد عليه الصلاة والسلام حجراً وجهه ، فقال : إنه كان من قبلكم يُمشط أحدهم بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم وعصب ، ويوضع المنشار على فرق راسه أحدهم فيشق — ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه .

قال ذلك عليه الصلاة والسلام وهو وأصحابه على هذه الخلقة الشديدة : من الاضطهاد والإيذاء ، وإن هذا لأعظم درس في الثبات على المبدأ الحق ، والصبر على المكاره واحتمال الآلام ، مع ثقة عظيمة بالله تعالى .

ولما اشتد الإيذاء على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وخاصة الضعفاء — أمرهم بالمهجرة إلى الحبشة . فهاجر إليها نحو عشرة رجال ونحو نسوة .

عدول المشركين عن خطة الإيذاء إلى عرض مطالب :

لما تبين لفريش أن أذى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يمد عليهم بمائدة بل كلما أوسعوا المسلمين أذى ربح إيمانهم ، واستقر يقينهم ، ومما صبرهم ، وتمجلى ثباتهم — لما تبين لهم ذلك اجتمعوا يتشاورون ، فقال لهم عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً مطاعاً في قومه : ألا أقوم لمحمد فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً له يقبل بعضها ، فنعطيه إياها ويكف عنا ؟ فقالوا : يا أبا الوليد ، لك ذلك ، فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي في المسجد ، وقال : يا بن أمي ، إنك منا حيث صليت : من خيارنا حسباً ونسباً ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم : فرقت به جماعتهم ، وسفقت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضي من آباتهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« قل يا أبا الوليد أسمع » .

فقال : يا بن أمي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مآلاً جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مآلاً ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي

يَأْتِيكَ رَيْبًا مِنْ الْجَنِّ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ طَلَبْنَا لَكَ الطَّبَّ، وَبَذَلْنَا فِيهِ
أَمْوَالَنَا حَتَّى نَبْرُكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ السَّامِعَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوِيَ . فَقَالَ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : قَدْ فَرَعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَاسْمَعْ مِنِّي ،
ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَ سُورَةِ فَصَّلَتْ (١ - ١٤) :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَم * تَتَرَى مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كَتَبْتُ فَصَّلَتْ
أَيُّهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ^(٢) مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا
وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عِمَالًا * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ
إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ . وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ *
قُلْ إِنَّا نَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَندَادًا . ذَلِكَ رَبُّ
الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَدَلَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ
أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْلٌ أَوْ نَهَارٌ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا
طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ
فِي كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرَهَا . وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا . ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ * فَلَمَّا أَعْرَضُوا قُلْنَا أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمْ

(١) جنى يره كهاة وطبا يلقى على لسانه شعرا . (٢) أغشية . (٣) تحمل .

(٤) مذاب وهلاك . (٥) غير مقطوع . (٦) شركا . جمع نذ وهو المثل المخالف .

(٧) قصد : توجهت لإرادته .

الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَبَيْنَ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ
مَلَائِكَةً فَيَأْتِنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَذِبُونَ *) .

فلما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى هنا أمسك عتبة بفيه، وناشده الرحم
أن يكف عن ذلك .

فلما رجع عتبة سأله فقال : والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله
ما هو بالشعر، ولا بالكهانة، ولا بالسحر . يامعشر قريش، أطيعوني فاجعلوها لي،
خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فَأَعْتَرَاهُ، وَاللَّهِ لَيَكُونَنَّ لِكَلَامِهِ الَّذِي سَمِعْتُ نَبَأً،
فإن تصبه العرب فقد كُفِّيْتُمُوهُ بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزه عنكم، فقالوا :
لقد صحرك جد، فقال : هذا رأي .

ثم عرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أن يشاركهم في عبادتهم
ويشاركوه في عبادته، فأنزل الله في ذلك :

(قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ *
وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *) .
فطلبوا منه أن يزرع من القرآن ذم الأوثان والتهديد الشديد، ويأتى بقرآن
غير هذا أو يبدله، فأنزل الله تعالى في سورة يونس (١٥) :

(قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ،
إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *) .

ولما رأى المشركون أن النبي صلى الله عليه وسلم ثابت على مبدئه، وأن مطالبهم
لم تحوِّله عن دعوته — بلحثوا إلى تعجيزه بالمعجزات، وقد تقدّم لك ذلك .

المقاطعة :

رأت قريش أن الإيذاء لم يثمر ، وأن المطالب التي اقترحوها ذهبت هباء
 منثورا ، وأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم يزداد ظهوراً ، والإسلام يصادف ترحيباً
 وانتشاراً ، فهموا بقتله صلى الله عليه وسلم ، وأجمعوا أمرهم على مقاطعة بنى هاشم
 وبنى المطلب ، وإخراجهم من مكة ، والتضييق عليهم ؛ فلا يبيعونهم ولا يتعاون
 منهم ، ولا يقبلون صلحاً حتى يُسألوا عهداً للقتل ، وتعاهد المشركون على ذلك ،
 وكتبوا به صحيفة علقوها داخل الكعبة ، فدخل عليه الصلاة والسلام مع بنى هاشم
 وبنى المطلب شعب عمه أبى طالب ، فمات قريش عنهم التجار ، وحرّموا التعامل
 معهم ، والاختلاط بهم ، والاقتراب منهم . وحينئذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم
 جميع المسلمين بالهجرة إلى الحبشة فهاجر إليها معظمهم ، وعقبتهم ثلاثة وثمانون رجلاً
 ومائتي عشرة امرأة .

وقد لاقى النبي ومن معه في الشعب عناء شديداً ، وجهداً جهيداً ؛ فكان
 لا يصل إليهم شيء إلا سراً ؛ حتى أكلوا أوراق الشجر من شدة الجوع ،
 ومكثوا على ذلك نحو ثلاث سنوات ، إلى أن ثارت عاطفة جماعة من أشراف
 قريش ، فطالبوا بنقض الصحيفة رحمة بأقاربهم ، وعملوا لذلك ، وتم لهم
 ما أرادوا ، وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هذه الشدة التي طال أمدها ،
 ولكنها لم توهن من صبره ، ولم تضعف من ثباته ، ولم تنل من ثقته بالله تعالى .

(ج) عطفه وشفقته صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم شديد الرغبة في إصلاح أمته ، عظيم الرأفة بها ،
والحَدْبِ عليها ، قال تعالى : ^(١)

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ *) ^(٢) ^(٣) ^(٤)

سورة التوبة (١٢٨)

(١) وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال :

« لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُّسْتَجَابَةٌ ، فَتَجِبُ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَوَيْ نَأْتِلُهُ — إِن شَاءَ اللَّهُ — مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا » .

فمن عطفه صلى الله عليه وسلم على أمته ، وكإل شفقته ورأفته ، واعتناؤه بشأنهم — أدخر دعوته إلى يوم القيامة ؛ لتكون شفاعة لهم في أهم الأوقات .

(٢) وعن عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم :

(رَبِّ إِنِّهٖنَّ أَضْلَآءَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِیْ فَإِنَّهُ مِنِّیْ ، وَمَنْ عَصَانِیْ فَلَا نَکَافُورَ رَحِیْمٌ *) ^(٥)

- (١) العطف . (٢) صعب وشديد . (٣) عتكم : مشقكم ولقاؤكم المكروه .
(٤) شديد الرغبة في إيمانكم ، وإصلاح حالكم . (٥) نسوة إبراهيم (٣٦) .

وقوله تعالى في عيسى عليه السلام :

(إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ عَابَدُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *) .

فرجع يديه وقال : اللهم أمتي ! وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل ،

اذهب إلى محمد (وربك أعلم) ، فسله : ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام ،

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال (وهو أعلم) ، فقال الله : يا جبريل ،

اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك .

فأتمثل هذا العطف السامي الذي أبكاه ، وهذا الفضل العظيم الذي منحه

الله لإياه .

(٣) وروى أن أعرابيا جاءه يطلب منه شيئا ، فأعطاه ، ثم قال له :

أأحسن إليك ؟ قال الأعرابي : لا ، ولا أجهلت ، فغضب المسلمون وقاموا إليه ،

فاشار إليهم أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إليه وزاده شيئا ، ثم قال :

أأحسن إليك ؟ فقال : نعم ، بفرك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال عليه

الصلاة والسلام : « إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء ، فإن

أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي ، حتى يذهب ما في صدورهم عليك ،

قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشي جاء فقال عليه السلام : إن هذا الأعرابي

قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى ، أكذاك ؟ قال : نعم بفرك الله من أهل وعشيرة

خيرا . فقال عليه الصلاة والسلام : « مثلي ومثل هذا الرجل مثل رجل له ناقة شردت

عليه ، فاتبها الناس فلم يزيدها إلا نفورا ، فتأداهم صاحبها : خلوا بيني وبين ناقتي

(١) فإني أرفقُ بها منكم وأعلمُ، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قُمام الأرض فردّها حتى جاءت واستناخت، وشدّت عليها رحلها، واستوى عليها . وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار .

(٤) وكان عليه الصلاة والسلام يسمع بكاء الصبي فيتجوّز في صلاته، ودخل الحسن وهو يصلي، فركب ظهره وهو ساجد، فأبطل صلى الله عليه وسلم في سجوده حتى نزل الحسن، فلما فرغ قال له بعض أصحابه : لقد أطلت سجودك، قال : «إن ابني ارتحلني فكهرت أن أعجِّلُهُ» .

(٥) وعن أنس بن مالك قال : ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان إبراهيم مُسترضعاً له في عوالم المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه ليدخن— وكان ظنّه قتيلاً— فيأخذه فيقبله ثم يرجع .

(٦) وعن أبي هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن، فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه من لا يرحم لا يُرحم .

(٧) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وغلّام أسود يقال له : أنجشة يحدو، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنجشة رويدك سوفاً بالقوارير » يأمره بالرفق في السير بالنساء اللاتي يشبهن القوارير الزاجية في ضعفها وسرعة انكسارها، وذلك أن الإبل إذا سمعت الحِلْداء أسرع في المشي واستلذته،

(١) جمع قامة : وهي الكفاة . (٢) يحفف . (٣) القتر : الموضع ويسمى زوجها أيضاً قلزاً وهو المراد هنا . (٤) يعني قلائل حطّ لها على السير . (٥) سبق بين على مهل .

فأزعجت الراكب واتعبته، فنهأ عن ذلك؛ لأن النساء تؤذنين شدة الحركة ويخافن سقوطهن، وهذه شفقة عظيمة من النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء، وعطف سام عليهن .

(٨) وعن ابن سويد قال : رأيت أباذررضى الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه مثلها، فسأله عن ذلك، فذكر أنه سأل رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبصره بأبيه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه .

(٩) ومر النبي صلى الله عليه وسلم على بئر قد لحق ظهره ببطنه، فقال : اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة؛ فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة .

(١٠) ودخل بستانا لرجل من الأنصار فإذا به جل، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذِفْرَاهُ ^(٢) فسكت، فقال : من رب هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ بقاء قتي من الأنصار، فقال : لى يا رسول الله . قال : « أفلا تتق الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ؛ فإنه شكا إلى ^(٣) أنك تُنجِسه وتُسبِّه » .

(١١) وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فترل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب

(١) خدمك . (٢) ذفره (بكسر الذال المعجمة وإسكان الفاء) الموضع الذي يهرق من

البئر خلف الأذن . (٣) تنجسه .

(١١) يلهث ، يا كل الترى من العطش ، قال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش
مثل الذى كان بلغ منى ، فقتل البئر فلا خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى ، فسقى
الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له . قالوا يا رسول الله ، وإن لنا فى هذه البهائم لأجرًا ؟
فقال : « فى كل كبد رطبة أجر » .

(١٢) وعن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصنى إلى
المهرة الإماء حتى تشرب ، ثم يتوضأ بفضلها .
فانظر إلى هذه الأحاديث التى تسيل عطفًا ، وتملأ رفقًا ولطفًا ، وتفيض
شفقة وحنانًا على الأمة جمعاء ، والصبيان والنساء ، والخدم والبهائم العجم . ولا غرو
فينبوعها سيد المرسلين ، الذى أرسله الله رحمة للعالمين .

(د) صفحه وحلمه صلى الله عليه وسلم

منع صلى الله عليه وسلم أوفر حظ من الحلم ، وأعظم قسط من الصفع عن
المسيء ، وأسمى نصيب من العفو عند المقدرة : فكان يصل من قطعه ، ويعطى
من منعه ، ويعفو عن ظلمه ، عملاً بقوله تعالى :

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ *) (١٤) وقوله : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ
بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ *) (١٥)

- | | | |
|---------------------------|---|--------------------------|
| (١) يخرج لسانه من العطش . | (٢) جازاه . | (٣) يميل . |
| (٤) سورة الحجر (٩٤) . | (٥) اليسر من أخلاق الناس ولا تشدد عليهم . | |
| (٦) المعروف المستحسن . | (٧) لا تقابلهم بسفهم . | (٨) سورة الأعراف (١٩٩) . |

(١) وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده، ولا امرأة ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما يسيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن يُتَهَكَّ شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل .

(٢) وحسبك دليلاً على ذلك عفوهُ عليه الصلاة والسلام عن الكافرين المقاتلين له في أشد ما نالوه به من الجراح والجهد؛ بحيث كُسرَت رِجْلُهُ وَجُحِيَ وَجْهُهُ يوم أحد، حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف، وكان أثر ذلك في نفس أصحابه شديداً؛ حتى قالوا : لو دعوت عليهم، فقال : «إني لم أبعث لعمانا، ولكن بعثت داعياً ورحمة، اللهم اغفر لقومي، أو اهد قومي؛ فإنهم لا يهابون» .

(٣) ثم إن أردت أن ترى مكارم الأخلاق متجسمة، والمروءة قائمة، والإنفضال كاملاً، والعفو عند المقدرة مائلاً، فتأمل ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح مع مشركي قريش الذين لم يألوا جهداً في إيذائه، وإلحاق أشدّ ضروب الضرر بأصحابه، والذين دبّروا تلك المؤامرة الشنعاء على هدر دمه وتوزيعه بين القبائل، فألجئوه وأصحابه إلى ترك أحب البلاد إليه وإلى الله، ولم يقفوا عند ذلك الحدّ، بل قاتلوه، وألبّوا عليه مشركي العرب .

ولما فتح الله عليه مكة تطاعت النفوس، وأشرّبت الأعناق، وشخصت الأبصار إلى ما هو فاعل من الانتقام ممن أوقعوا به أشدّ أنواع الإيذاء، وأذاقوه أمر الآلام، ولكنه توجّه هذا الفتح الحليل، بالعفو النبيل، والصفح الجميل، قال صلى الله

(١) يتناول ويرتكب . (٢) السن التي تلى السنين الأمايتين مينا وبسارا وأعلى وأسفل .

(٣) جموا . (٤) اشتت .

عليه وسلم يومئذ : " يا معشر قريش مَا تَبْرُونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ قالوا : خيرا ،
أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فاتم الطَّلَقاء » أى الأحرار .

(٤) وعن زيد بن سَعْنَةَ « أجل أحبار اليهود الذين أسلموا » أنه قال :
لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه عهد حين نظرت إليه ،
إلا اثنتين لم أَخْبَرُهُمَا منه : يسبق حلمه جهله ، ولا تستريده شدة الجهل عليه
إلا حالما ، فكنت ألتطف له لأن أخالطه ، فأعرف حلمه وجهله ، فَأَبْتَعْتُ منه تمرا^(١)
إلى أجل ، فأعطيته الثمن ، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيت فأخذت
يجمع قبضه وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، ثم قلت : أَلَا تَقْضِيَنِي يَا عَهْدُ حَقِّي ؟
فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مطل ، فقال عمر : أى عدو الله أتقول لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ما أسمع ! فوالله لولا ما أحاذر فَوْتَهُ لضربت بسيفي رأسك !
ورسول الله ينظر إلى عمر في سكون وَتَوَدَّةٍ وتبسم ، ثم قال : أنا وهو كَأَحْوَجِ^(٢)
إلى غير هذا منك يا عمر : أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التَّبَاعَةِ : اذهب
به يا عمر فأقضه حقه ، وزده عشرين صاعا مكان ما رُعْتَهُ ، ففعل ، فقلت : يا عمر^(٣)
كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت
إليه إلا اثنتين لم أَخْبَرُهُمَا : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيد شدة الجهل إلا حالما ،
فقد خبرتهما ، فأشهدك أنى قد رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وعهد نيا .

(١) أترفق .

(٢) اشترت .

(٣) المطالبة بحق .

(٤) الصاع : مكيال قدره خمسة أوطال وثلاث عند الامام مالك والشافعي وماتية عند أبي حنيفة .

(٥) أفرغه .

(٥) وعن أنس بن مالك قال : كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية ، فادركه أعرابي فجذبه برداءه جبهة شديدة ، نظرت إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال : يا محمد ، مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ، ثم أمر له بعتاء .

وفي هذا كمال خلقه صلى الله عليه وسلم ، وتماح حلمه ، وصفحه الجميل الجاهلين ، ودفع السيئة بالحسنة .

(٦) ومن ساعى خلقه ، وعظيم صفحه ، وواسع حلمه ، إغضاؤه عن الذين كانوا يؤذونه إذا غاب ، ويتملقونه إذا حضر . وذلك مما تنفر منه البشرية حتى تؤيدها العناية الإلهية بالمقامات العلية ، والأخلاق المرضية .

٧ - مجد صلى الله عليه وسلم

أفضل الخلق أجمعين

جدير بمن جاء بخير الأديان ، أن يكون أفضل إنسان :

(١) فحمد صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق جميعاً ، قال وهو الصادق المصدوق :

((إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم : من خير فرقهم وخير الفريقين ثم تَخَيَّرَ القبائل فجعلني من خير قبيلة ، ثم تَخَيَّرَ البيوت فجعلني من خير بيوتهم ؛ فأزخيرهم نفساً وخيرهم بيتاً) .

(٢) وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جلس ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ينتظرونه ، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذكرون : فقال بعضهم عجباً ! إن الله عز وجل اتخذ من خلقه إبراهيم خيلاً ، وقال آخر : بأذا بأعجب من كلام موسى : كلمه ربه تكليماً ، وقال آخر : فعيسى كلمة الله وروحه ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله ؛ فخرج عليهم فسلم وقال : قد سمعت كلامكم وعجبكم : ^د خليل الله وهو كذلك ، وموسى نبي الله وهو كذلك ؛ وعيسى روح الله هو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ولا نفر ، وأنا واء الحمد يوم القيامة ولا نفر ، وأنا أول شافع وأول مُشَفَّع يوم القيامة ، وأنا أول من يميزك ^أ حلق الجنة فيفتح الله لى قِئْدِخْلِيهَا ومعى قراء المؤمنين ^{فنا} ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا نفر .

(٣) وقال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا نفر » .

قال المروى : السيد هو الذى يفوق قومه فى الخير . وقال غيره : هو الذى نج إليه الناس فى النوائب والشدائد ، فيقوم بأمرهم ، ويحمل عنهم مكارهم ، يدفعها عنهم .

(٤) وليس أدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الناس أجمعين من أن الله تعالى أخذ على جميع النبيين عهداً إن طالت مدتهم وامتنعت بهم حياتهم ، حتى جاءهم عهد صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به وينصروه ، وأقترؤا على ذلك وشهدوا ، وشهد الله معهم .

تقرأ ذلك في قوله تعالى في سورة آل عمران (٨١) :

((وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِنَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَهُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ . قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ، قَالُوا أَقْرَضْنَا . قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ *)) .

ففي هذه الآية الدليل على أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء الذين هم أفضل من عداهم ، فيكون أفضل الخلق أجمعين .

٨ - محمد صلى الله عليه وسلم

خير المعطاء الذين أقمنا الإنسانية

إن الوجوه التي كان بها النبي صلى الله عليه وسلم خير منقذ للإنسانية كثيرة جداً يستنبط معظمها مما تقدم ، ولكنا نجمل لك أهمها :

(١) بعث صلى الله عليه وسلم وقد ظهر الفساد في البر والبحر ، وانتشر في البدو والحضر ، وطبق جميع الأمم ، واحتل كل مرافق الحياة ، وغشى القلوب ، فزاعجت العقائد ، وساءت الضمائر ، فجاء بدين يمتح عام ملائم لكل الأمم في جميع بقاع الأرض ، كفيل بعلاج جميع أمراض الفرد والجماعة : توغل في جميع حنايا النفس واصفا كل حالة لها ، مينا حكم الله فيها ، وهيمن على شئون الاجتماع البشرية ، وأوضح ما لكل شأن من نفع وضر ، وما ينبغي فيه من فعل وهجر ، وبذا فصل جميع الأخلاق الفردية ، والخلل الاجتماعية ، فترك بابا للفساد إلا أغلقه ، ولا وجها للإصلاح إلا حققه .

(٢) راقب وأشرف .

(٣) عهدى .

(٤) عهد .

(٢) رسالته صلى الله عليه وسلم خير نصير للعقل على التخلص من قيود الأوهام والخرافات ، والأباطيل والأساطير ، تلك الأمور التي ^(١) بكتته الدهور الدهارير . أخذت هذه الرسالة بيده إلى التفكير فيما يطيف به من الكون ؛ ليقوم لديه أكبر برهان على المبدع العظيم ، وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تستحث العقل على التدبر في عجائب المخلوقات :

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْرِيلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ *) ^(٢) .

وبالتفكير تصفو النفس من أكارار الحياة الدنيا ، ويطهر القلب من أدران العقائد السقيمة ، ويتهيأ للعقل اتصاف الخالق بكل كمال ، وتزجه عن كل نقص ؛ ولذلك كان التفكير في ملكوت السموات والأرض من أسمی أنواع العبادات ، فقد ورد في الحديث « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » ، وقال العارفون : إن تفكير يتابع الحكم من القلب لا يكون إلا بالفكر ؛ ولذلك كانت عبادة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة الفكر عند أهل التحقيق .

(٣) جاء الإسلام مؤيداً للعلم ومؤيداً به ، مؤثراً ^(٤) بغيره ؛ فإقول آية نزلت من القرآن الكريم تُشيدُ بذكر العلم ، وتُعدُّه من عظيم نعم الله ، وواسع كرمه :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ *) ^(٥) .

(١) قيده . (٢) يخيبط . (٣) سورة النازية (١٧ - ٢٠) .

(٤) رافعا ذكره ومثاله . (٥) دم غليظ . (٦) سورة العلق (١ - ٥) .

وعن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع
أجنحتها رضاء لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض
حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ،
إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ،
فمن أخذه به أخذ بحظ وافر » .

وبالعلم كان العلماء أعرف الناس بربهم ، وأشدهم خشية له ، « إِنَّمَا يَخْشَى
اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » ^(١) ولذلك رفع الله قدرهم ، وأعلى ذكركم ، « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي
الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » ^(٢) . ولا غرابة في هذا ؛ فهم القدوة والأسوة ،
وإليهم المفزع إذا حزبت الأمور ، وَأَنْتُمْ سِرَاطٌ لِلْخَلْقِ ، وتراكت محائب الحيرة ،
قال تعالى : « فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » ^(٣) .

وبهذا تعرف أن الخصومة التاريخية بين رجال الدين وبين العلماء ،
أو كما يقولون : بين الدين والعلم - ليست من الدين الإسلامي في شيء ، بل هو منها
براء ؛ إذ هو يشجع العلم والبحث والتحقيق ؛ ولذا كان العلم الصحيح خير هاد إلى
ذلك الدين القويم ، وكلما تقدم العلم إلى الأمام ، امتدت به خطواته نحو الإسلام .

(٤) جاء صلى الله عليه وسلم بدين الإسعاد ، في المعاش والمعاد ؛ فكان أنه دين
العقل والعلم ، هو دين الدنيا والآخرة ، وهو دين إصلاح لها في حياة رسوله ، وبعد

(١) سورة قاطر (٢٨) . (٢) سورة الزمر (٩) . (٣) كشف غلāmها .

(٤) سورة الأنبياء .

لقائه ربه ، وسيبقى بمشيئة الله كذلك إلى يوم القيامة ؛ وذلك لأن معجزته الكبرى :
وهي القرآن باقية ما بقي الزمان ، محفظة من غوائل الجِدَّان .
(^(١) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *) .

وأما معجزات سائر الأنبياء عليهم السلام فقد انقضت باقضاء حينها ،
وامتدت يد العبث بالتحريف والتبديل والحذف والزيادة إلى كتبهم وشرائعهم .
ومن الحكم الإلهية ، والناية الربانية أن ما يتعلق بالعقائد قد بسط في القرآن
بأوضح بيان ؛ حتى لا يتسرب إلى العقيدة ما يشوب صفاءها ، أو يكثر تقاءها .
وأما ما يختص بالمعاملات والأحكام فقد أجهل في قواعد كلية : تستبطن منها
الجزئيات ، على حسب الأيام والعرف والجهات .

وأفضل أسباب الحضارة ووجوه العمران ، يتسع له صدر القرآن .

(٥) كانت طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته تربي الاعتماد — بعد
الله — على النفس ، وقوة الإرادة ، والشجاعة والإقدام ، والصبر على مقارعة
الحوادث والآلام ، وتُحِبُّ المشورة والخضوع لرأي الكثرة ، وتقرس حرية العقل
والفكر والعمل ؛ فليس لأحد بعد الله ورسوله سلطانٌ على المرء في ذلك ، وتبث
الشقة والرفق والمحبة ، وتُثَلِّي الهمة ، وتدعو إلى الجهد والسعي وحسن المعاملة ،
والإخلاص لله ولكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

والمهم في هذا أن أعماله صلى الله عليه وسلم كانت دروساً عملية ، لهذه الأخلاق
السنية ؛ فلم يقف بها عند حد المحفوظات التي تحشى بها الأذهان ، أو العظات

البقولية التي كثيراً ما تُستقرُّ الإنسان ، بل بعمله صيرها لمن كان لهم شرف المشاهدة والاتباع ملكاتٍ راسخة : تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن البدر ، والأريج عن الزهر . ولذلك تخرج جيلاً جليلاً : عقائدُ أهله أروع من الجبال الشم ، وهمهم أسمى من الجوزاء ، أخلاقهم وطيدة ، وآراؤهم في السياسة والإدارة والحرب والسلم رشيدة ، ماركوا الخطوب فعركوها ، وصارعوا أرق الدول فصروعها ، وأعلوا بذلك منار الإسلام ، ونشروا نوره بين جميع الأنام .

وما ذلك إلا لأنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم كان خير مثال للولك والولاية والأمرء ، والقواد والقضاة والحكماء ، والمرشدين والسياسيين والمشرعين ، والمحاربين والمسالين ، والعابدين والزاهدين . كل أولئك يحذون من صفاته وأقواله وأفعاله مُثُلًا كاملة ، يعملون على غرارها ، ويستضيئون بساطع نورها .

٩ - محمد صلى الله عليه وسلم

أجدر الناس بالإيمان به وطاعته ومحبته

قد استقرَّ في أذهانتنا أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كانت لإصلاح فساد امتدت أطنا به على جميع الأمم ، وضرب رواقه على كل أنحاء العالم ونواحي الحياة ؛ فهي علاج كامل ، لوباء شامل ؛ ما تركت فضيلة إلا أقامت بنياتها ، ولا رذيلة إلا هدمت أركانها ، وبنا اقتتل محمد صلى الله عليه وسلم العالم من وحدة التواوية ،

(١) جمع طلب وهو جبل انبلاء ، فمن هذه العبارة تشبيه الفساد ببناء ضرب على الأمم جميعها .

(٢) بيت من الشعر يحمل على عمود واحد في وسطه .

الى ذروة الهداية ، واستغنى الناس بالإسلام عن أى دين آخر سابق أو لاحق ،
فهو الدين الذى أظهره الله على الدين كله ، وارتضاء دون غيره لسعادة الدارين .
(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ *) .

ومن يحاول الوصول من غير هذه السبيل فحاولته في تضليل .
(وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَانْ يُقْبَلْ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *)^(٢) .
فالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واجب تُهْرَعُ إليه النفوس الطاهرة ؛ لأن
أعلام صدقه ظاهرة ، ودلائل نبوته متظاهرة .

وَالْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ :

فأما القول : فالاعتراف باللسان أنه صلى الله عليه وسلم رسول الله حقاً ،
جاء بدين هو خير الأديان ، وناسخها ، وخاتمها .

وأما العمل : فنوعان : عمل القلب وعمل الجوارح .

(١) عمل القلب

عمل القلب : التصديق بكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم : من عقائد
وأوامر ونواه .

ومن عمل القلب محبته صلى الله عليه وسلم ، وكيف لا يحب الناس من أحسنهم
من برائن الضلال ، وشفاهم من داء الجهل العُضال ، وهداهم الى محاسن الخلال ،
وما يحسن به الحال والمآل ؟ وإذا كانت النفوس قد جُبلت على حب من أحسن

(١) سورة آل عمران (١٩) . (٢) سورة آل عمران (٨٥) .

إليها بوجه من وجوه الإحسان الفانية ، فما بالك بمن أحسن إليها بكل ضروب الإحسان التي بها سعادة الدنيا والآخرة ؟ إن المرء ليشعر بأن هذا الإحسان عظيم ، عَظُمَتُهُ غير محدودة ، وأنه لا يستطيع أى إنسان — مهما عظمت محبته لك — غير عهد صلى الله عليه وسلم أن يسديه إليك ، ولو كان أحد أبويك ، أو نفسك التي بين جنبيك .

وإذ كان الحب أثراً من آثار الإحسان — والأثر على قدر المؤثر قوة وضعفاً — وجب أن يكون حبنا لمحمد صلى الله عليه وسلم يفوق كل حب ؛ لأن إحسانه إلينا يفوق كل إحسان ؛ فحبه أعظم من حبنا لوالدينا وأولادنا ، وأعظم من حبنا لأنفسنا . قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » وقال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : متى أكون مؤمناً صادقاً ؟ قال : « إذا أحببت الله » فقيل : ومتى أحب الله ؟ قال : « إذا أحببت رسوله » فقيل : ومتى أحب رسوله ؟ قال : « إذا اتبعت طريقته ، واستعملت سنته ، وأحببت بحبه ، وأبغضت ببغضه ، وواليت بولايته ، وعاديت بعادته . ويتفاوت الناس في الإيمان على قدر تفاوتهم في محبتي ، ويتفاوتون في الكفر على قدر تفاوتهم في بغضي ، ألا إيمان لمن لا محبة له ، ألا لا إيمان لمن لا محبة له ، ألا لا إيمان لمن لا محبة له . »
والناس في محبته درجات بعضها فوق بعض على حسب ذوقهم طعم الإيمان ، ومقدار شعورهم بما نلهم منه من إحسان : فمنهم من يشغل بذكره معظم الأوقات ،

بعد أداء الصلوات ، ومنهم من يذوق العبرات إثر العبرات ، كما سمع أوقراً طرفاً من حكمة البالغات ، ومنهم من اشتدَّ به الحُيام ، حتى استعذب في سبيله أقصى ضروب الإيلام .

والصحابة رضوان الله عليهم لم من حبه صلى الله عليه وسلم الحظ الأوفر؛ لما عهم من نور المشاهدة، ومُنَحُّوه من جميل الصحبة، ونالوه من ثمرة المعرفة، وهالك بعض الأمثلة التي تسنين منها عظيم محبتهم، وسامى إخلاصهم :

(١) كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مولى يسمى « ثوبان » وقد بلغ من حبه له أنه فقد الصبر عن البعد عنه ؛ قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم يوماً ، وقد هزل جسمه ، وامتع لونه ، وعلته سحابة من الكآبة ، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم عما حل به ، فقال : يا رسول الله ، ما بى وجع غير أنى إذا لم أراك اشتقتك ، واستوحشت من ذلك وحشة عظيمة ، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك ؛ لأنى إن دخلت الجنة فأت تكون فى درجات النبى فلا أراك ، فتزل قوله تعالى :

((وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ . وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)) (٢)

والمراد أن الرؤية والمشاهدة ممكنة ؛ لزوال الحجاب الذى من عادته أن يحول دون ذلك فى الدنيا ، وليس المراد أنهم جميعاً فى درجة واحدة .

(١) المشق المشرف على الجنون .

(٢) سورة النساء . (٦٩) .

(٢) لما أشيع يوم أحد أن النبي صلى الله عليه وسلم قُتِلَ ، وكثرت الصواريخ بالمدينة — خرجت امرأة من الأنصار تتعرف أخباره ، فاستقيلت بأخيها وابنها وزوجها وأبيها قتل ، وكلما مرت بواحد منهم صريعا قالت : من هذا ؟ قالوا : أخوك ، وأبوك ، وزوجك ، وابنك ، قالت : فما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : أمامك ، وما زالت سائرة حتى ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذت بناحية ثوبه ، ثم جعلت تقول : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لا أبالي إذ سلمت من عطب .

(٣) لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثينة من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان : أشدك الله يا زيد ، أحب أن عهدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ فقال زيد : والله ما أحب أن عهدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وإني جالس في أهلي ، فقال أبو سفيان : ما رأيت أحدا من الناس يحب أخدا كحب أصحاب محمد عهدا .

(٤) وكان على كرم الله وجهه يقول : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلينا من أموالنا ، وأولادنا ، وآبائنا ، وأمهاتنا ، ومن الماء البارد على الظما » ، ولقد أقام البرهان على ذلك ليلة الهجرة : إذ أقدم بشجاعة وسرور على المييت في فراش النبي صلى الله عليه وسلم وقد علم أن قبائل العرب قد أجمعوا أمرهم على قتله في تلك الليلة ، فكان أول من قدم تغذية في الإسلام ، وباع نفسه في سبيل الله ..

ومن محبته صلى الله عليه وسلم محبة آله الأطهار، وعِترته الأبرار، ونزريته الأخيار، وأزواجه أمهات المؤمنين، وأصحابه أجمعين .

ومن حبه صلى الله عليه وسلم حُبُّ القرآن الكريم، والحديث الشريف، وتعظيمهما؛ فإن من أحب إنساناً كان ما يصدر عنه أثر شيء لديه، وأشبهه إليه، يُقْبَلُ عليه أعظم إقبال، ولا يستريه من سماعه أو تلاوته شيع ولا ملال، وكيف يشيع المحب من كلام محبوبه، أو كيف يملّه وهو غاية مطلوبه .

ومن حبه صلى الله عليه وسلم حُبُّ أمته؛ بأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، يوالى من والاهم، ويعادى من عاداهم، ويكون معهم كالجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهر .

(ب) عمل الجوارح

علمت أن عمل القلب : التصديق به صلى الله عليه وسلم ومحبته، وأما عمل الجوارح فنمترهما وأثرهما : وهو القيام بكل ما أمر به صلى الله عليه وسلم، والابتعاد عن جميع ما نهى عنه، واقفاء سيرته الذكية، والتخلق بأخلاقه المرضية، ونصرة دينه بالقول والفعل، والخشوع عند ذكره، والإكثار من الصلاة عليه . وهالك بيان هذا من القرآن الكريم :

(١) قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ . وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ * ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١٥٦٦ ١٥٦٧ ١٥٦٨ ١٥٦٩ ١٥٧٠ ١٥٧١ ١٥٧٢ ١٥٧٣ ١٥٧٤ ١٥٧٥ ١٥٧٦ ١٥٧٧ ١٥٧٨ ١٥٧٩ ١٥٨٠ ١٥٨١ ١٥٨٢ ١٥٨٣ ١٥٨٤ ١٥٨٥ ١٥٨٦ ١٥٨٧ ١٥٨٨ ١٥٨٩ ١٥٩٠ ١٥٩١ ١٥٩٢ ١٥٩٣ ١٥٩٤ ١٥٩٥ ١٥٩٦ ١٥٩٧ ١٥٩٨ ١٥٩٩ ١٦٠٠ ١٦٠١ ١٦٠٢ ١٦٠٣ ١٦٠٤ ١٦٠٥ ١٦٠٦ ١٦٠٧ ١٦٠٨ ١٦٠٩ ١٦١٠ ١٦١١ ١٦١٢ ١٦١٣ ١٦١٤ ١٦١٥ ١٦١٦ ١٦١٧ ١٦١٨ ١٦١٩ ١٦٢٠ ١٦٢١ ١٦٢٢ ١٦٢٣ ١٦٢٤ ١٦٢٥ ١٦٢٦ ١٦٢٧ ١٦٢٨ ١٦٢٩ ١٦٣٠ ١٦٣١ ١٦٣٢ ١٦٣٣ ١٦٣٤ ١٦٣٥ ١٦٣٦ ١٦٣٧ ١٦٣٨ ١٦٣٩ ١٦٤٠ ١٦٤١ ١٦٤٢ ١٦٤٣ ١٦٤٤ ١٦٤٥ ١٦٤٦ ١٦٤٧ ١٦٤٨ ١٦٤٩ ١٦٥٠ ١٦٥١ ١٦٥٢ ١٦٥٣ ١٦٥٤ ١٦٥٥ ١٦٥٦ ١٦٥٧ ١٦٥٨ ١٦٥٩ ١٦٦٠ ١٦٦١ ١٦٦٢ ١٦٦٣ ١٦٦٤ ١٦٦٥ ١٦٦٦ ١٦٦٧ ١٦٦٨ ١٦٦٩ ١٦٧٠ ١٦٧١ ١٦٧٢ ١٦٧٣ ١٦٧٤ ١٦٧٥ ١٦٧٦ ١٦٧٧ ١٦٧٨ ١٦٧٩ ١٦٨٠ ١٦٨١ ١٦٨٢ ١٦٨٣ ١٦٨٤ ١٦٨٥ ١٦٨٦ ١٦٨٧ ١٦٨٨

(٢) وقال تعالى : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَسَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا *)^(١) .

(٣) وقال جل شأنه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولٍ إِنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلِلتَّقْوَى * لَمْ يَغْفِرَ لَهُمْ وَاظِرُّوا عَظِيمٌ *)^(٢) .

(٤) وقال سميت حكمته : (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *)^(٣) .

اللهم صل عليه وعلى آله وأصحابه في كل لحظة ، عدد خلقك ، ورضاء نفسك ، وزنة عرشك ، ومداد كلماتك .

(٢) تبطل .

(١) سورة النساء (٨٠) .

(٤) الصلاة من الله تعالى الرحمة ، ومن الملائكة

(٣) سورة الحجرات (٣٤٢) .

(٥) سورة الأحزاب (٥٦) .

الاستغفار ، ومن الناس الهداء .

اساس الدين الاسلامى

١ - الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر

أُسِّسَ الدِّينُ الإسلامى الذى لا يتحقق إلا بها، وأصوله التى لا وجود له بسواها -
نومان : علمية وعملية .

والأسس العلمية ثلاثة : الإيمان بالله تعالى، ورسوله، واليوم الآخر،
والإيمان بالرسول يستتبع الإيمان بالكتب المنزل عليهم، وبمن نزل بها من الملائكة .
وهذه الخمسة هى المذكورة فى قوله تعالى :

((لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)) وفى قوله عز وجل : ((وَمَنْ يَكْفُرْ
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا *)) (١)

وهى التى أجاب بها النبي صلى الله عليه وسلم حينما جاء جبريل عليه السلام
فى صورة أعرابى وسأله عن الإيمان فقال : «الإيمان : أن تؤمن بالله، وملائكته
وكتبه، ورسوله، والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره» .

(١) الإيمان بالله

هو التصديق والإقرار بأنه لا إله إلا هو : أى لا معبود بحق إلا الله . وذلك
يستدعى التصديق بأنه (موجود) لا أول لوجوده ولا انتهاء له ؛ فهو متصف
(بالقدم والبقاء) : لم يسبقه علم ولا يلحقه فناء .

(١) انظر : (٢) توجها . (٣) خوة البقرة (١٧٧) . (٤) سورة النساء (١٣٦) .

وأنه (حىُّ قادرٌ قاهرٌ) ^(١) : لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ^(٢)
ذو الملك والعزة، ^(٣) والخلق والأمر، الأرض والسماوات في قدرته، والخلاق جميعاً
في قبضته، خلقهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم .

وأنه (عالمٌ) : يحيط علمه بكل شيء : لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض
ولا في السماء، بل يعلم ديبب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء،
ويعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وحركات الخواطر، وخفيات
السرائر .

وأنه تعالى (مريدٌ) للكائنات، مدبر للمخدرات ؛ فلا يجرى في الملك قليل
أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شر، نفع أو ضرر، إيمان أو كفر، عرفان أو نكر،
فوز أو خسران، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان، إلا بقضائه وقدرته، وحكمته
ومشيئته ؛ فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة
أو يسكنوها دون إرادته لمجزوا عن ذلك .

وأنه تعالى (سميعٌ بصيرٌ) ^(٤) : لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى، ولا يغيب
عن رؤيته مرئى وإن دق، ولا يحجب سمعه بُعد، ولا يدفع رؤيته ظلام، يرى
وليس له عيتان ، ويسمع بلا آذان ، كما يعلم بغير قلب، ويطش بغير جارحة،
ويخلق بغير آلة، تعالى الله عن صفات المخلوقين علواً كبيراً .

(١) قادر لا يحصل في ملكه إلا ما يريد . (٢) فتور يتقدم النوم . (٣) القوة والخلق
وعظم الظهير . (٤) لا يبعد ولا يغيب ولا يخفى .

وأنة تعالى (متكلم) : أمر ، ناه ، واعد ، متوعد : بكلام قديم لا يشبه كلام الخلق ؛ فليس بصوت ولا حرف .

وأنة تعالى (واحد) في ذاته ، وصفاته ، ووجوده ، وأفعاله :

فذاثة ليست مركبة ، ولا تشبيه ذوات المخلوقات ، ولا يساويه في صفاته .
موجود من الموجودات ، وليس له شريك في وجوده ، ولا في أفعاله ، فهو مخالف للحوادث في كل شيء ، وكل ما سواه من الموجودات : من إنس وجن ، وملك وشيطان ، وسما وأرض ، وحيوان ونبات ، وسائل وجماد ، وجوهر وعرض ، ومدرك ومحسوس — مخلوق له ، حادث بفعله : اخترعه بقدرته بعد العدم ، وأنشأه بعد أن لم يكن ، على أحسن الوجوه وأكملها ، وأتمها وأعدلها .

وهو (حكيم) في أفعاله ، (عادل) في أحكامه ، لا يقاس عدله بعدل العباد ؛ إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ، ولا يتصور الظلم من الله تعالى ؛ فإنه لا يصادف لغيره ملكاً ، حتى يكون تصرفه فيه ظلماً .

(ب) الإيمان بالرسل واليوم الآخر

يجب التصديق بأن الله تعالى في أزمنة مضت ، وحقب تعاقبت — اصطفي رجلاً من بني آدم : منحهم مواهب عالية ، وصفات سامية ، وأخلاقاً راقية ، وأرسلهم إلى قومهم ليُبصِّروهم بحالهم العظيم ، وصفاته الجليلة ، حتى يفردوه بالعبادة ، وأنزل عليهم بواسطة الملائكة كتباً تتضمن الأوامر والنواهي التي يريد تبليغها إليهم ؛ لتقويم أعوجاجهم ، وإصلاح شأنهم ، والسير بهم في طريق الخير ،

وتعتبتهم عن طريق الشر، وإفهامهم أن كل إنسان سيجزى بما كسبت يده ،
 في يوم يسمى : اليوم الآخر ، ويوم القيامة : وهو يوم يقوم الناس جميعاً فيه من
 قبورهم ، لحزائهم على ما قدموا في دنياهم من خير أو شر :

(مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ *)^(١)

ويجب الإيمان بما يكون يوم القيامة مما ورد ذكره في القرآن الكريم ، أو أخبر
 به النبي صلى الله عليه وسلم : من البعث ، والحساب ، والصراف ، والميزان ،
 والجنة والنار .

وما لم يرد به قرآن ولا سنة صحيحة نُسِكُ عنه ، ونكل علمه إلى الله سبحانه
 وتعالى ؛ لأن أمور الآخرة لا تعرف بالعقل ، بل بالخبر الصادق عن الله .

وصفوة القول : أن العقائد التي حرت بك من الإيمان بالله وصفاته ،
 والرسول وكتبهم ، والملائكة وسفارتهم ، واليوم الآخر وما يحدث فيه ، وغير ذلك
 مما جاءت به الحنيفية السمعة^(٢) — أساسها كلها ، ومصادقها جميعها التصديق والشهادة^(٣)
 بأن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ فإن التصديق بهذه الشهادة يستلزم
 التصديق بشعبها وفروعها كلها ، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة .
 ولا يكون العبد مصدقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله
 ولقائه ، ولا يكون مؤمناً بالله إلا هو حتى يتسلب خصائص الإلهية عن كل موجود
 ولا يكون مؤمناً بأن الله لا إله إلا هو حتى يتسلب خصائص الإلهية عن كل موجود

(١) سورة الزلزلة (٧ ، ٨) . (٢) طريق الاستقامة والمراد بها الديانة الإسلامية .

(٣) السهلة .

سواء، ولا يكون مصدقاً بها مَنْ قَى الصفاتِ العليا، ولا من قَى كلامه وتكليمه، وأنه أرسل الرسل لهداية البشر، وأنه اجتبى محمداً صلى الله عليه وسلم، وفضله على الناس جميعاً، وأنزل عليه القرآن : مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، وأنه جعلَ رسالته عامةً لجميع الأمم، وناخضةً وخاتمةً للرسالات، وأنه أسرى به صلى الله عليه وسلم إليه، وأنه يُدَبِّرُ الأمر من السماء إلى الأرض ثم يرجع إليه . إلى سائر ما وصف به نفسه ، ووصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا يكون مؤمناً بهذه الكلمة، مصدقاً بها حقاً من قَى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور :
 (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَلَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ بِالْإِثْنَى كُنْتُ تُرَابًا*) ، (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ*) ، (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ*) .

ولا يكون مصدقاً بهذه الكلمة من زعم أنه ترك خلقه سُدىً : لم يأمرهم ولم ينههم على السنة ورسله .

فالتصديق بها يقتضى الإذعان والإقرار بحقوقها، وهى شرائع الإسلام ، التى جاء بها سيد الأنام، والتى هى تفصيل هذه الكلمة العظيمة، وذلك بتصديق جميع أخباره، وامتنال أوامره، واجتناب نواهيه .

(١) شاهداً . (٢) سورة المائدة (٤٨) . (٣) سورة النبأ (٤٠) .
(٤) تقى وتفضل . (٥) سورة الحج (٢) . (٦) خال من الشرك والفاق
من سورة الشعراء (٨٨، ٨٩) . (٧) مهملين .

فالمصدق بالشهادة هو الذى يأتى بذلك كله ، ولا تنال سعادة الدارين
إلا بالتصدق بها ، والقيام بحقها ، ولا يحق الشقاء فى الدنيا والآخرة إلا على تركها
أو ترك حقها .

٢ - الإيمان وسيلة السعادة

الإيمان بالمعنى الذى سبقت الإشارة إليه سبب رقى الإنسان وسعادته ،
ولولاه ما كان نظام العالم ، ولا عرف معنى الواجب ولا حدوده ، والواجب هو
محور النظام بين الأفراد والجماعات والأمم .
وليس للشهوة ما يقيمها^(١) ، ولا للأهواء ما يردعها^(٢) إلا الاعتقاد بأن للعالم صانعاً
عليماً بمضمورات القلوب ، ومطويات النفوس ، سامى القدرة ، واسع الحول
والقوة ، مع اعتقاد أنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه فى حياة بعد هذه
الحياة .

وبغير هذين الاعتقادين لا تلبس المدنية سربال الحياة ، ولا يستقيم نظام
المعاملات ، ولا تصفو صلات البشر من شوائب الغل والغش وما إليهما .
ومن أشرب فى قلبه هذين الاعتقادين انبعث بحكمهما ، وانساق بحاديمهما إلى
إضاءة عقله بالعلوم النافعة ، والمعارف الصافية ؛ خشية أن يهبط به الجهل إلى نقص
يفضب ربه ، ويستوجب فى الآخرة عقابه ، ثم ينصرف همه إلى إبراز ما أودع فيه
من القوة السامية والمدارك العقلية ، والخواص الجليلة باستعمالها فيما خلقت له ؛ فهو
ينفق ساعاته فى تهذيب نفسه ، وتطهيرها من دنس الرذائل ، ولا يقصر فى تقويم
(١) ما يقهرها ويذلها . (٢) يمتنها ويترجها .

أخلاقه، ويتزعم إلى كسب المال من الوجوه المشروعة، مُتَنَجِّجًا طريق الحياة،
ووسائل الكذب والحيلة، معرضًا عن أبواب الرشوة، مترفعًا عن الملق والخداع،
ثم ينفق ما كسب في الوجه الذي يليق، وعلى الطريقة التي تنبغي، وبالتقدير المطلوب :
لا يأتي فيه باطلاً ولا يُنفِلُ حقًا .

فالإيمان يدعو المرء إلى الاتصاف بالصفات القوية، والخلال العظيمة، والأفعال
الكريمة، إذ يبحث على ترقية النفس بالعلم، والجد والسعى، والمثابرة، وقوة العزيمة،
واحترام النفس، والثقة بها مع التوكل على الله، والشجاعة، والاعتدال، والإخلاص
في العمل، والصدق في القول، والنصيحة لله ولكتابه ورسوله ولأئمة المساكين وعامتهم،
والاتحاد على الخير، والتعاون على البر والتقوى، والعمل للدنيا والآخرة معًا في غير
غلو، وحسن المعاملة، والأمانة، والوفاء بالعهد، والحلم، والعدل، والتواصي بالحق،
والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعفو عند المقدرة، والصبر على المكروه،
مع الرضا بقضاء الله وقدره : خيره وشره، والمحبة والمواساة، والرحمة والرفق .

وأعظم باعث على ذلك الصوم ؛ فإنه تهذيب للنفس ، وغرس للعطف
والشفقة فيها .

وفي الصلوات الخمس تذكرة جميلة، وصلة قوية بين العبد وربّه، ومنهأة للعبد
عن ارتكاب ما يفضب سيده، وفي صلاة الجماعة ^(١) نهضة ^(٢) لعدد أواصر التعارف والتآلف،
وبعث على التواضع، والمساواة، والنظام، وأداء الواجب في حينه .

(٢) جمع آمرة : وهي الزاظة .

(١) فرصة .

وفي الزكاة والصدقة صلة وذية بين الأغنياء والفقراء، وحل لأعظم مشكلات الحياة الحاضرة، وقطع لأسباب الفوضى، وحفظ للأمن من شرور المتعطلين والمتنظرين .
والج أعظم مؤتمر، وأكبر فرصة للبحث في كل ما يعود على الأمة بالخير والإسماع، في المعاش والمعاد، وتوثيق للروابط بين الأمم الإسلامية، وتطهير للنفس مما دنسها من طل وأوصاب ، وتذكير باليوم الآخروم لا أنساب ولا أحساب .
وإن في القرآن الكريم لدعوة صريحة إلى تأليف عصبة أم إسلامية؛ لإصلاح ذات بينها، ونزع الأحقاد من قلوبها ، وعقد الصلات الودية، والروابط الدينية، وكف يد الظلم والمعدون بالقوة والسلطان، قال تعالى في سورة المجرات (١٠،٩) :
(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَغَايِلُوا إِلَىٰ تَبَٰئِيٍّ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنْ فَاجَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *) .

إلى غير ذلك من المزايا الكثيرة التي احتواها الإسلام ، وكل مزية منها عنصر من عناصر السعادة الحقيقية، مما جعل هذا الدين أحكم مرشد، وأهدى قائد إلى المدنية المؤسسة على المعارف الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة .

وهذه المزايا العظيمة قد سَعد بها المسلمون الأولون، ورفعتهم إلى غرف الحضارة السامية، وأزالتهم معاقل المنعة، وأحلتهم محل الكرامة، وأجلستهم على كرسى السعادة، فسادوا العالم ورفعوا لواء العرفان، ونشروا نور القرآن في كل مكان.

(١) جمع وصب : وهو المرض : (٢) تجميع . (٣) العادلين .

الدين يدعو إلى المحافظة على النفس والمال

(١) المحافظة على النفس

المحافظة على النفس : صونها من الأمراض الباطنة والظاهرة ، أو المعنوية والحسية : فالأمراض الباطنة هي الرذائل الخلقية . والأمراض الظاهرة ما يعتري الأجسام فيوهنها ، أو يعوقها عن القيام بعملها ، أو يودي بحياتها ، أو حياة عضو منها .

ولحفظ النفس من الأمراض الباطنة وسائل كثيرة أهمها :

(١) رياضتها بالعلم :

يجب أن يزيد المرء نفسه كل يوم علماً جديداً ؛ ليدوم له صفاء العقل ، ويبقى ما لذته من صقل ، ويدلّل له عمله ، ويستتير سبيله ؛ ويستديم تمييز الضار من النافع ، والحيث من الطيب ؛ فتسمو نفسه بالفضيلة ، عن الوقوع في مرض الرذيلة .

والنفس إذا أهملت النظر في العلوم ، وعدمت الفكر ، والغوص على المعاني — كدّرت وصدّت ، واقطعت عنها مائة كل خير ، وإذا ألقت الكسل ، وركنت إلى العطلا تلبّثت وتبلّثت ؛ فلا تميّز خيراً من شر ، وذلك نزول بها إلى رتبة البهائم . وأما إذا عوّدت الناشئ النظر في العلوم ، وحُبب إليه من صغره مداومة البحث فيها ، فإنه يحتمل ثقل الروية والفكر ، ويألف الصديق ، ويأنس بالحق ، ويتبوّط طبعه عن الباطل ، وسمعه عن الكذب .

(٢) اصطفاء الأصحاب :

يجب على من يبنى المحافظة على صحة نفسه أن يصحب الأخيار، ويحذر الخنر كله من معاشر الأشرار، فلا يُصْنِي إلى أخبارهم مستطياً، ولا يَرَوِي أحاديثهم مستحسناً، ولا يحضر مجالسهم متهماً. وأقل شيء من ذلك يعلق من دَنَسِهِ بالنفس ما لا يُنْسَل عنها إلا بالعلاج الصعب، في الزمن الطويل، وربما كان سبباً في فساد العالم المرشِد، فضلاً عن الناشئ المسترشد. قال عليه الصلاة والسلام : « المرء على دين خليله ؛ فلينظر أحداًكم من يُخالِل » .

(٣) استقصاء العيوب :

يجب على المرء أن يستقصى عيوبه بدقة ؛ ليقطع دابرها، ويتقَدَّ نفسه فقد خير غير مفتون بها، ولا مغرور فيها ؛ ليستأصل شأفة رذائلها، مستعيناً على ذلك بخلصائه الذين لا يخلون عليه بالنصيحة، ويقبل ذلك منهم مسروراً شاكراً .
والعاقل يستعين بأعدائه كما يستعين بخلصائه ؛ فكما كشفوا له عيباً عاج نفسه منه، وكما أظهروا رذيلة هجرها ؛ فإن خيار الناس ينتفعون بأعدائهم، كما ينتفعون بأوليائهم، قال الشاعر :

عداى لهم فضل على ومنة فلا أبعد الرحمن عنى الأعدايا

هو بجنوا عن زلتى فاجتبتها وهم فافسونى فاكسبت المعاليا

وينبى للمحلف على نفسه أن يتخذ من جميع معارفه مرعاة له ؛ فإذا رأى من أحدهم عيباً أتهم نفسه به، وعمل على الابتعاد منه .

(٤) محاسبة النفس :

حَمِّمْ عَلَى الْمَرْءِ الَّذِي يُوَدُّ أَنْ يَبْقَى مُعَافٍ فِي أَخْلَاقِهِ ، أَنْ يَزِنَ كُلَّ مَا يَصْدُرُ عَنْ نَفْسِهِ بِمِيزَانِ الْعَقْلِ وَالْدِينِ ، وَيَعْرِضَ عَلَيْهِمَا كُلَّ لَيْلَةٍ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ ؛ بِحَيْثُ لَا يَتْرَكَ مِنْهَا صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ؛ فَإِذَا وَقَفَ عَلَى سَيِّئَةٍ أَشَدَّتْ عَذْلَهُ نَفْسُهُ وَتَأْنِيهِ إِيَّاهَا ، وَفَرَّضَ عَلَيْهَا عِقُوبَاتٍ مُضَادَّةَ لِهَذِهِ الذُّنُوبِ :

فَإِذَا أَنْكَرَ مِنْ نَفْسِهِ مَبَادِرَةً إِلَى طَعَامٍ ضَارٍ ، أَوْ تَرَكَ حِمَّةً كَانَتْ لَازِمَةً ، أَوْ تَنَاوَلَ فَاكِهَةً غَيْرَ مُوَافِقَةٍ ، أَوْ حَلَوَاءٍ كَذَلِكَ — عَاقَبَ نَفْسَهُ بِصُومٍ لَا يَفْطُرُ فِيهِ إِلَّا عَلَى الْطُفِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَأَقْلَهُ .

وَأِنْ أَنْكَرَ مِنْ نَفْسِهِ مَبَادِرَةً إِلَى غَضَبٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، أَوْ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ أَوْ زِيَادَةً عَلَى مَا يَجِبُ مِنْهُ — فَلْيَقَابِلْ ذَلِكَ بِلُومِ نَفْسِهِ وَتَمْنِيْفِهَا ، وَإِرْضَاءِ مَنْ غَضِبَ عَلَيْهِ ، وَلْيَفْرِضْ عَلَى نَفْسِهِ مَالًا يُخْرِجُهُ صَدَقَةً .

وَأِنْ أَنْكَرَ مِنْ نَفْسِهِ كَسَلًا وَتَوَانِيًا فِي مَصْلَحَةٍ لَهُ فَلْيَعَاقِبْهَا بِسَعْيٍ فِيهِ مُشَقَّةٌ ، أَوْ بِصَلَاةٍ فِيهَا طَوِيلٌ ، أَوْ بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي فِيهَا كَدٌ وَتَعَبٌ .

وَبِالْإِجْمَالِ : يَر_اقِبِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ ، وَيَتَدَبَّرُ كُلَّ أَمْرِهِ ، وَيَقِيْسُهَا بِمِقْيَاسِ الْعَقْلِ وَالْدِينِ ؛ حَتَّى يَدُومَ تَحْلِيْفُهَا بِالْفَضَائِلِ ، وَتَخْلِيْفُهَا عَنِ الرَّذَائِلِ .

وَالْمَحَافِظَةُ عَلَى النَّفْسِ مِنْ الْأَمْرَاضِ الْجَسْمِيَّةِ تَكُونُ بَعْدَ تَعْرِيفِهَا لِلْحَدِّ أَوْ الْقَصَاصِ ، أَوْ أَى لَوْنٍ مِنَ الْأَوَانِ التَّهْلُكَةِ ، أَوِ الْأَلَمِ ، أَوِ الضَّعْفِ ، وَمِرَاعَاةِ طَرِيقِ الْوَقَايَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي تُتَعَلَّقُ بِنَظَافَةِ الْجَسْمِ ، وَنَظَامِ الْغِذَاءِ ، وَمَلَأَمَةِ الْمَلْبَسِ ، وَصِلَاحِ الْمَسْكَنِ ، مَعَ إِعْطَاءِ النَّفْسِ قِسْطَهَا مِنَ الرَّاحَةِ ، وَنَصِيْبِهَا مِنَ الْاِسْتِرَاضَةِ .

(ب) المحافظة على المال

جعل الله المال شطر زينة الحياة الدنيا، فقال جل شأنه :

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ^(١) ، وحث على السعى في اكتسابه بقوله تعالى : « فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ » ^(٢) ، وقوله : (فَاَمْشُوا فِي مَتَابِعِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ) ^(٣) .

وعنه سبحانه وتعالى نعمة امتن بها : (وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ) ^(٤) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْوَلَدِ الصَّالِحِ » ، وعن ابن عمر، رضى الله عنهما : « أَحْرَثَ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا ، وَأَحْرَثَ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ قَدًا » .

ولما كانت الرغبة في المال فطرية ، والشراسة عليه طبعية : قد تدفع المرء إلى التهامه حينما وجد إليه سبيلاً — أوجب الله أن يطلب من الوجوه المشروعة ، قال صلى الله عليه وسلم :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) » ^(٥) وقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ^(٦) ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَا رَبُّ يَا رَبُّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟ » .

(١) سورة الكهف (٤٦) . (٢) اطلبوا من رزق الله . (٣) سورة الجمعة (١٠) .

(٤) جوانها . (٥) سورة المائدة (١٥) . (٦) سورة الاسراء (٦) .

(٧) سورة المؤمنون (٥١) . (٨) سورة البقرة (١٧٢) . (٩) متغير الشجر: مثله وخشخشة .

وعني الإسلام بالمال هذه الصناية ؛ لأن به تصان النفس من الامتهان ، ولا تمتد اليد إلى أى إنسان ، ولا تتطلع العين إلى نعم الله على عباده ، وبه يُتَال المطلوب ، وتُغرس الكرامة في القلوب ، وتكثر الأصدقاء والأعوان ، وتُدْفَع طوارئ الحداث ، وتُؤدَّى منه الزكاة ، وينفق على الفقراء وهم عيال الله ، ويستعان به على العلم والعمل ، والذكر والفكر ، وجميع وجوه البر . وبعد ذلك « إنك أن تَذَر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم حالة يَتَكَفَّفُونَ الناس » .^(١)

قال الشيرازي : « لا تستهزئ بالمال وتتميته ؛ فإن المال آلة للكارم ، وعون على الدهر ، وقوة على الدين ، ومألفة للإخوان ، ومعين على حوادث الزمان ، وبهجة الدنيا وزينتها . قيل لحكيم : لم تجمع المال وأنت حكيم ؟ قال : لأصون به العرض ، وأؤدَّى به الفرض ، وأستغنى به عن القرض . وفقد المال يصحبه قلة الاكتراث من الناس ، وتنبه قلة الرغبة فيه ، والرغبة منه ، ومن لم يكن موضع رغبة أو رهبة استخف به الناس » .

لذلك كله أمرنا الله تعالى بالمحافظة على المال ، وسلوك سبيل الاعتدال فيه : فلا تفريط ولا إفراط ، ولا إسراف ولا تقتير . قال تعالى :

﴿ وَلَا يَجْمَلْ يَدَكَ مَقُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا ۚ ﴾^(٢)
محسورا^(٤) *^(٥)

- (١) يمدون أكفهم إلى الناس بالمسألة . (٢) الاهتمام أى إن الناس لا يبالون قليل للمال ، ولا يحفلون به ، ولا يقيمون له وزنا . (٣) القل طوق من حديد يجمل في العنق ، ويجعل اليد مقولة إلى العنق يراد به الإمساك عن الاتحاق كل المسك ، كما يراد ببسطها كل البسط التحذير . (٤) مقطعا لاشئ عندك . (٥) سورة الإسراء (٢٩) .

ومدح المعتدلين في الإنفاق ، وجعلهم في عداد عباده الذين يحبهم ، قال جل شأنه :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَفْقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا *)^(١)

ونهى عن التبذير وذم المبذرين وجعلهم في عداد الشياطين . قال تعالى :

(وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا *)^(٢)

وقال تعالى : (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ *)^(٣)

(٢) سورة الإسراء (٢٧) .

(١) وسطا ، آية ٦٧ من سورة الفرقان .

(٣) سورة الأعراف (٣١) .

عناية الدين بالنظافة

طهارة البدن والثوب والمكان

لقد عنى الدين الإسلامى بالطهارة عناية فائقة ، قال الله تعالى :

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ^(١) *)) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الطَّهْوَرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ » .

والنظافة ضربان : نظافة السرائر ، ونظافة الظاهر :

فنظافة السرائر : تطهير القلب من الأخلاق المذمومة ، والذائل المحققة :

كالنفاق والرياء والحقد والحسد ، وتطهيره أيضاً مما سوى الله .

والغاية القصوى عمارة القلب بالأخلاق الحميدة ، والعقائد الرشيدة ، ولن يعمر

بها إلا إذا نظف من نقائضها ، ونظفت الجوارح من المنوعات ، وطهرت بالطاعات .

ونظافة الظاهر : تطهيره من الحدث ، والخبث ، مع نظافة الجسم .

والحدث نوتان : أكبر وأصغر .

فالأكبر : ما يوجب النسل : كالجنابة ، والحيض ، والتفاس .

والأصغر : ما يوجب الوضوء : كالبول ، والغائط ، وسائر نواقض الوضوء .

فطهارة الحدث ضربان : طهارة الجسم كله : وهى الغسل ، وطهارة بعض

أجزائه : وهى الوضوء .

والخبيث : النجاسة العالقة بجسم الإنسان ، أو ثوبه ، أو مصلاه ، ولا بد من إزالتها بالطهور ، وبقاء لونها أو رائحتها يدل على بقاء ذاتها ، فلا بد من إزالتها إلا إذا تسمرت فيبقى عنها . وإزالة النجاسة عن جسم الإنسان وثوبه ومكان صلاته شرط في صحة الصلاة عند جمهور العلماء .

ونظافة الجسم : تتجمل المطلوب ، وسنة جميلة ، وفطرة نقية .

وهي نوعان : لإزالة أوساخ ، وفصل أجزاء :

فالأولى :

(أ) تنظيف شعر الرأس والحية مما علق به من غبار وغيره : بالغسل

والترجيل والدهن .

(ب) تنظيف معاطف الأذن مما تجمع فيها : بمسح ما ظهر ، والترقيق

في تنظيف ما بطن .

(ج) تنظيف داخل الأنف من الرطوبات المنعقدة المتصقة بجوانبه :

وذلك بالاستنشاق والاستنثار .

(د) إزالة ما يجمع على الأسنان من القلح^(١) : بالمضمضة والسواك .

(هـ) لإزالة ما علق بالأصابع ، وما تحت الأظافر من الوسخ .

(و) تنظيف جميع البدن مما يجمع عليه برشح العرق ، وغبار العمل

والطريق : وذلك بكثرة الاستحمام .

(١) تغير الأسنان بصفرة أو خضرة .

والثانية :

حلق شعر الرأس ، وقص الشارب ، وشعر الأنف ، وتنف الإبط ، وتقليم
الأظفار ، وقطع زيادة السرة في أول الولادة ، والختان ، وما زاد عن المتوسط
في المحية .

والنظافة بضربها تُجَمِّلُ المرءَ ظاهراً وباطناً ، وتُعِدُّه لاستحقاق مِنَحِ القبول
من الله والناس ، وتُلَيِّسُهُ ثياب العافية ، وتزِيلُ عنه الكسل والفتور ، وتغرس
فيه النشاط والحبور .

يسر الاسلام ورفع الحرج عن المسلمين

من لطف الله بعباده أن منحهم ديناً متيناً ؛ سهلاً مع المقدرة ، سَمحاً عند قيام المعذرة ؛ قال تعالى :

((لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)) . وقال عظم لطفه : ((يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)) .

فلا مشقة في اتباعه ، ولا عناء في القيام بأوامره ، ولا ضيق في اجتناب نواهيه ، قال جل شأنه :

((وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)) . وقال عز وجل : ((طَهَّ * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى *)) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الدِّينَ يَسْرُ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا ، وَقَارِبُوا ، وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْقُدْوَةِ وَالرُّوحَةِ وَتَنَزَّلُوا مِنَ الدُّبْلَةِ . »

فالنبي صلى الله عليه وسلم يوضح في هذا الحديث سهولة الدين ، ويدعونا إلى عدم التشدد فيه ، ويخبر بأن المشاد لا بد مغلوب ؛ فخير لره أن يتحزى الصواب ، ويعمل على قدر طاقته ، بلا إفراط ولا تفريط ، ويستعين على الطاعة بالعمل

-
- (١) سورة البقرة (٢٨٦) . (٢) سورة البقرة (١٨٥) . (٣) سورة الحج (٧٨) .
 (٤) سورة طه (٢٤١) . (٥) ذو يسر وسهولة لم يأمرنا إلا بما تقدر عليه في غير مشقة .
 (٦) لا يناله أحد ويتشدد فيه إلا اقطع عن العمل . (٧) تحزوا الصواب ، توسلوا .
 (٨) ان لم تقدر على الأكل فاعملوا ما يقرب منه ، ولا تناولوا . (٩) القدوة : أول النهار .
 (١٠) الروحة : آخر النهار . (١١) الدبلة : آخر الليل .

وقت النشاط، وفراغ القلب من الشواغل، فيستلذ العبادۃ، ولا يسأم الطاعة،
ويبلغ المراد، بلا إجهاد؛ كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات، ويستريح
هو ودابته في غيرها، فيصل إلى القصد، من غير جهد.

ولما كان في التشديد حرجٌ ينافي الحكمة السامية كره الله تعالى المتشدين،
وعذبهم خارجين عن حدود الدين، قال تعالى في سورة المائدة (٨٧، ٨٨) :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ
مُؤْمِنُونَ *﴾

وعن أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط^(١) إلى بيوت أزواج النبي صلى
الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أُخبروا كأنهم
تَقَالُّوْهَا، وقالوا أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه
وما تأخر، قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر : وأنا أصوم
الدهر أبداً ولا أفطر، وقال الآخر : وأنا أعتل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء
رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله
إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج
النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .^(٢)

(٢) عدوها قليلة .

(١) الرهط : ما دون عشرة من الرجال ليس فهم امرأة .

(٣) لم يردعها ولم يتسك بها .

فالنبي صلى الله عليه وسلم ينفر من التشديد، ويبرأ من المتنتهين والمغالين، ويحث على التيسير، والترام السنة السمحة. وهذا هو الجدير بمن بعث رحمة للعالمين، برسالة خاتمة للرسالات، حتى ينشرح لها صدر الناس كافة، وتقرّ بها عيونهم، وتميل إليها نفوسهم؛ فيتعلقون بأهدابها، ولا يشذون عن آدابها.

ومظاهر التيسير كثيرة في مختلف العبادات، نذكر لك منها إباحة المسح على الخفين، والجلبائر ونحوها، والتيمم :

١ - المسح على الخفين

قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مسح على خفيه؛ فقد روى عن المغيرة ابن شعبه « أن النبي صلى الله عليه وسلم مسح على الخفين، فقلت يا رسول الله، نسيت، قال : بل أنت نسيت، بهذا أمرني ربي عز وجل ».

فيصح المسح على الخفين لعذر، ولغير عذر.

طريقة المسح على الخفين : يضع الماسح كفه الأيمن منشوراً الأصابع على مقدّم أعلى الخلف الأيمن، ويضع الكف الأيسر كذلك على مقدّم أعلى الخلف الأيسر، ثم يمزجهما على ظهر الخفين إلى الساقين.

عن علي رضي الله عنه : « لو كان الدين بال رأى لكان أسفل الخلف أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح على ظاهر خفيه ».

شروط المسح : يشترط لجواز المسح على الخفين :

- (١) أن يكونا ساترين لحمل غسل الفرض من القدمين .
- (٢) أن يلبسا على طهارة كاملة .

واشترط كثير من الفقهاء أيضًا :

(١) أن يكونا نحيين مانعين من وضوء الماء إلى الجسم .

(٢) وأن يمكن متابعة المشى فيهما .

مدة المسح : « عن شريح بن هانيء قال : سألت عائشة عن المسح على الخفين ، فقالت : عليك بابن أبي طالب ؛ فإنه كان يسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألناه ، فقال : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ولياليهنَّ للسافر ، ويومًا وليلة للقيم » ، وتهدئ هذه المدة من وقت انتقاض الوضوء بعد لبس الخفين .

مبطلات المسح : يُبطل المسح على الخفين أحد الأمور الآتية :

(١) كل ما ينقض الوضوء ، وعند تجديد الوضوء يجتد المسح على الخفين ، إلا إذا كان ناقض الوضوء يوجب الفسل ؛ فلا يكفي حينئذ المسح ، بل لابد من غسلهما وغسل الرجلين .

(٢) خروج القدم كلها أو جلها من الخفين ، ويُكتفى حينئذ بفسل الرجلين إذا كان الوضوء باقيا ، وإلا فلا بد منه .

(٣) وصول الماء إلى القدم كلها أو معظمها ، وهو يوجب غسل الرجلين .

(٤) انتهاء المدة المقررة له ، ويقتصر المرء على غسل رجله إن كان على

وضوئه .

(١) أى من مدة المسح على الخفين .

٢ - المسح على الجبائر ونحوها

من عظيم بسر الدين الإسلامى أن المرء إذا أصيب عضو من أعضائه، أو جزء من أجزاء جسمه بكسر، أو جرح، أو مرض لا يقدر معه على استعمال الماء في الوضوء أو الغسل - يَرْطِطُهُ ويمسح على الرباط : كُتْلُهُ ، أو جُلَّةً ، ويفسل الجزء الصحيح من العضو المصاب، إن كان غسله لا يضر الجزء المريض .

والرِّبَاطُ الذى يَشُدُّ على العضو المصاب إن كان عِيدَانًا لُفَّ عليها وَرَقٌّ ، أو قطن، أو نسيج، أو غيرها سَمَى جَبِيْرَةً . وإن لم يكن فيه أعواد فهو لَصُوق أو عَصَابَةٌ .

والمسح على الجبيرة ونحوها غير محدود بزمن، بل هو كالماء : كلما توضع المرء واغتسل مَسَحَ عليها .

وإذا سقط الرباط أو استبدل به غيره والعضو لا يزال مريضاً فلا ضرورة إلى المسح، لكن الأفضل إعادته .

٣ - التيمم

ومن مظاهر التيسير السامية في الدين الإسلامى أنه إذا دخل وقت الصلاة ولم تجد ماء تتوضأ به أو تغتسل، أو بعد الماء عنك ميلاً شرعياً (نحو ألفى متر)، أو كان معك ماء ولكنك تخشى من استعماله مرضاً، أو زيادته، أو تأخر الشفاء منه، أو كنت تحتاج إليه لشرب إنسان أو حيوان ولو كلب حراسة، أو لعجن أو طبخ يضرك عدمه . أو تهذر عليك الوصول إلى الماء لأى سبب : تخوف

عدو، أو حيوان مفترس، أو فقد أداة من الأدوات التي تستعمل لإخراج الماء من البئر.

إذا جاء وقت الصلاة وحصل لك مذر من هذه الأعذار أو مماثلها وجب عليك أن تتيمم وتصل.

كيفية التيمم :

تسمى الله تعالى، وتنوى استباحة الصلاة، وتضع يديك مُفرقاً أصابعهما على تراب طاهر أو نحوه : من كل طاهر من جنس الأرض، ثم تنفض يديك، وتمسح بهما وجهك، ثم تضمهما على التراب ثانية، وتمسح بهما يديك إلى مِرْفَقَيْكَ مُقدِّماً اليمين، ثم تصل ما تشاء من الفروض والنوافل.

نواقض التيمم :

ينقض التيمم زوال المذر المبيح له، وكل ما ينقض الوضوء.

عمر بن الخطاب

رضي الله عنه

رجل ذوهية كبيرة، وشخصية خطيرة : تألفت من نظر بعيد، ورأى رشيد، وشدة في الحق ظاهرة، وعناية بأحوال الرعية، وسياسة جد مرضية . كل هذا في قوة إيمان : يرضاها الرحمن، ويرهبها الشيطان، ويخشاها الظلوم، ويلوذ بها المظلوم؛ فيضعف أمامها الأقوياء، ويقوى بها الضعفاء .

كان عمر في ذلك كله، وفي كثير غيره مضرب الأمثال، وموضع الإعجاب والإجلال، عند جميع الأمم وعلى توالى القرون والأجيال . وللاشارة إلى أن عمر كان جُماعَ خير الخصال، وجميل الفعال، قال سيد الخلق صلى الله عليه وسلم : «لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» .

وهو مع ذلك كله ينتمي إلى أشرف الآباء، وينتسب إلى خير القبائل؛ فهو عمرُ بن الخطاب بن نُفَيْلٍ من بني عَدِيٍّ بنِ كَعْبٍ بنِ لُؤَيٍّ بنِ غالب القرشي؛ وأمه حَتَمَةُ بنت هاشم بن المنيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة .

وُلِدَ لثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسلم في السنة السادسة للبعثة، وتولى الخلافة بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنهما يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ، وتوفي (متأثرًا بطعنات أبي لؤلؤة) ليلة الأربعاء لِثَلَاثَ لَيَالٍ بقيت من ذى الحجة سنة ٢٣ هجرية .

شخصيته الخطيرة، وهيبته الكبيرة :

كان لعمر في جاهليته وإسلامه شخصية بارزة، ومثالة سامية، وهيبة عظيمة:

(١) أما في الجاهلية فيكنى في الدلالة على ذلك أن تعرف أن عمر كان سفير

قريش : إذا وقع بينهم وبين غيرهم حرب، واتسع المجال للمفاوضة بين المتحاربين —

ارتضوه مفاوضاً، وبعثوه سفيراً، وإذا نافرهم منافر، أو فاجرهم مفاجر، أو سلوه^(١)

منافراً ومفاجراً، وتلك مثالة تنسب إليها الأعناق، وتتطلع النفوس، وتمتد الآمال،

ولكن لا يحظى بها إلا عظماء الرجال .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرى هذه المثالة العظيمة لعمر، ويرى فيه لذلك

قوة كبيرة لها أثرها، وروحا قوية لها قدرها، ويتقن أن تكون تلك القوة للإسلام

أزراً، وهذه الروح للمسلمين عزاً ونصراً؛ فكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه:

« اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ : يَا بِي جَهْلٍ أَوْ يَمُرَّ بِنِ

الْخَطَابِ » ؛ ويقول : « اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ » .

(٢) إسلام عمر :

وتستطيع أن تلمح ما كان لعمر من هيبة؛ وما له في قلوب القوم من وهبة،

من ثنايا قصة إسلامه :

كان عمر شديد الإيذاء للمسلمين ، فأخبر أن أخته وزوجها قد أسلما ، فذهب

إليهما حاقاً ؛ وما قرع الباب ، وأخبر أنه ابن الخطاب ، حتى أسرع الفرق إلى من^(٢)

(١) المنافرة : المحاكمة ؛ يقال : نافرته إلى الحكم فنفرني عليه : أى حاكمته إليه فظنني عليه وأصل

المنافرة قولهم : أيا أعرزقرا ، والمنافرة : المباشرة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغير ذلك .

(٢) الخوف .

في الدار؛ فَأَهْرَعُوا^(١) إِلَى الْإِخْتِفَاءِ فِي أُنْحَاثِهَا، وَمِنْ شِدَّةِ فَزَعِهِمْ تَرَكُوا الصَّحِيفَةَ الْقَرَأِيَّةَ الَّتِي كَانُوا يَقْرَءُونَ فِيهَا، فَسَأَلَ أَخْتَهُ وَزَوْجَهَا عَنْ هَيْئَتِهِمَا فَأَنْكَرَا^(٢) أَوَّلًا، ثُمَّ اعْتَرَفَا وَنَطَقَا بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَوُثِبَ عَلَى زَوْجِ أَخْتِهِ وَثْبَةً عَنِيْقَةً، وَحَاطَلَتْ أَخْتَهُ دَفْعُهُ، فَضَرَبَهَا ضَرْبَةً أَسَالِ الدَّمِ مِنْ وَجْهِهَا، وَأَخَذَ الصَّحِيفَةَ وَقَرَأَ مَا فِيهَا، وَإِذَا نُورُ الْقُرْآنِ يَصِلُ إِلَى لَبِّهِ، وَبِشَاشَةِ الْإِسْلَامِ تَتَخَذُ طَرِيقَهَا إِلَى قَلْبِهِ، وَيُظْهِرُ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِهِ فَيَسِّرُ مَنْ فِي الْمَتَرَلِ، وَيَنْسَوْنَ مَا لَحَقَهُمْ مِنْ إِيْذَاءٍ، وَيُظْهِرُ مِنْ جُلَا مِنْهُمْ إِلَى الْإِخْتِفَاءِ،

وسأل عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فَأَرْشَدَ إِلَى دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ فِي لِحْفِ الصِّفَا، فَأَسْرَعَ إِلَيْهَا، وَلَمَّا عَلِمَ الْمَسَامُونَ بِقُدُومِهِ وَجَلُّوا جَمِيعًا مَاعِدًا حِمْزَةً^(٣)، وَلَمْ يَجْرُؤْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ الْبَابَ مِنْ شِدَّةِ فَزَعِهِمْ، حَتَّى أَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِفَتْحِهِ، فَدَخَلَ وَأَخَذَ رِجْلَانِ يَعْضُدِيهِ خَشْيَةً أَنْ يَبْطِشَ بِأَحَدٍ، فَأَمَرَهُمَا النَّبِيُّ بِإِرْسَالِهِ، بِجُلُوسِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ بِمَجْمَعِ قَبِيصِهِ وَجَذَبَهُ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ :

« أَسْلِمَ يَابْنَ الْخَطَّابِ، اللَّهُمَّ اهْدِ قَلْبَهُ »، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ .

(٣) أثر إسلام عمر :

وَلَمَّا كَانَ لِعُمَرَ مِنْ مَكَانَةِ سَامِيَةِ لَمْ يَكُنْ لِإِسْلَامِهِ حَدَّثًا عَادِيًّا، بَلْ كَانَ حَدَّثًا قَوِيًّا، لَهُ دَوِيَّةٌ الْمُدِيدِ، وَأَثَرُهُ الْبَعِيدِ، وَوَقْعُهُ الشَّدِيدِ، كَانَ لَهُ ذَلِكَ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ وَعِنْدَ الْمُسْلِمِينَ :

(٢) الهينة : الصوت الخفى .

(٤) خافوا .

(١) أهرعوا في رعدة .

(٣) أصل الجبل المسمى بالصفا .

أما عند المشركين فقد أحدث المألاً لاذماً ، وحرزاً لِنِياطِ القلوب قاطماً ،^(١)
 وخذلاً^(٢) — لا محالة — واقماً .

وأما عند المسلمين فالسرور العام ، والاعتباط التام ، وفاتحة نصيرهام ، وقوة
 للإسلام . تلمح ذلك من قول ابن عباس رضى الله عنه : « لما أسلم عمر قال
 المشركون : قد انتصف القوم منا ، وأنزل الله :^(٣)

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *)^(٤) .

وكان المسلمون يعبدون الله سرراً ، ويقومون بشعائر دينهم خفية ؛ خشية بطش
 الكفار وإيذائهم ، فلما أسلم عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ
 إِنْ مِتْنَا أَوْ حَيَيْنَا ؟ قَالَ بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَعَلَّ الْحَقَّ إِنْ مِتُمْ وَإِنْ حَيَيْتُمْ .
 قَالَ : فَعِيمَ الْإِخْتِفَاءِ ؟ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنُخْرِجَنَّ ، قَالَ عمر : فانخرجناه في صفيين ؛
 حمزة في أحدهما ، وأنا في الآخر حتى دخلنا المسجد ، فنظرت إلى قريش وإلى حمزة ،
 فأصابهم كآبة لم يصيبهم مثلها ، فَمَتَّانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ
 الْفَارُوقُ : فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ . قال صهيب ابن سنان : لما أسلم عمر
 ظهر الإسلام ، ودعا إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقاً ، وطُفْنَا بِالْبَيْتِ ،
 وانتصفنا ممن غَلَطَ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يَأْتِي بِهِ .

وقال محمد بن عبيد : لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر ،
 فلما أسلم عمر قائلهم حتى تركونا نصلي .

وقال عبد الله بن مسعود : « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر » .

(١) النياط : عرق متصل بالقلب إذا قطع مات صاحبه . (٢) لا يذ .

(٣) أخذوا النصفة : وهي العدل . (٤) سورة الأحقال (٦٤) .

نظره البعيد، ورأيه الرشيد :

أولاً — كان العرب في جاهليتهم يعترفون لعمر ببعده نظره، وسداد رأيه ؛
دل على ذلك اختياره للسفارة التي لا بد لها من عقل راجح، وبصيرة نافذة، وطارضة
قوية، وحجة قاطعة .

ثانياً — البرهان الساطع على أن ظنه كان يهجم على غوامض الغيوب، وفكره
يغوص في عميقات الأمور — أنه كان يرى الرأي فيقول القرآن مصدقاً لفكرته ،
ومؤيداً لوجهته ، وقد تكرر ذلك حتى بلغ حد الكثرة، نذكر لك طرفاً منه على
سبيل المثال :

(١) روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عمر عند الكعبة فقال :
« هذا مقام إبراهيم » ، فقال عمر : أفلا نخذه مُصَلِّياً ؟ فقال عليه الصلاة والسلام :
« لم أومر بذلك » ، فلم تغب شمس ذلك اليوم حتى نزل قوله تعالى :

﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ ﴾ .

(ب) قال عمر : يا رسول الله، لو أمرت نساءك أن يحتجبن ؛ فإنه يكلمهن

البر والفاجر، فزلت آية الحجاب :

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَائِهِنَّ حِجَابٍ . ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ ^(٢)

(ح) وعن أنس قال : قال عمر رضي الله عنه : « اجتمع نساء النبي صلى الله

عليه وسلم في الغيرة عليه ، فقلت لمن :

(١) ستر . (٢) سورة الأحزاب (٥٣) .

(عَمِيَ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ) ^(١) . فترلت هذه الآية .

إلى غير ذلك مما يقوم برهانا جليا على أن ظن عمر كان صوابا ، ورأيه كان قسسا وهاجا ، وأنه قد ألمم السداد ، وألقى في رُوعه الصواب ، فكان جديرا بقوله صلى الله عليه وسلم : (قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأَمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ ^(٢) ، فَإِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ) ، وبقوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ جَمَلَ الْحَقِّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ » .

ثالثا — المتأمل في تاريخ عمر يستولى عليه الدهش ، ويملك الإعجاب جميع أنحائه ، ويستقر الإجلال في سويدائه ؛ لهذا العقل السامى ، والذكاء الفائق ، الذى نظم الجيوش الزاهرة ، وثل عروش الجبابرة .

اقرأ خطبه فى الجيوش وغيرهم ، وكتبه إلى القواد والولاة ، ترعفا كبيرا ، وعلمنا عزيزا ، وحزما أكيدا ، وعزما شديدا ، ورأيا رشيدا . تدبر ما وضعه من الخطط الحربية والنظم السياسية ، والمبادئ الاقتصادية ، والأحكام الإدارية لجميع الممالك الإسلامية ، مع الاتقان ، والإشراف على تنفيذها بإحكام ، مما جعله فى التاريخ المثل التام ، على توالى الأعوام ؛ لكل قابس من الخلفاء والأمراء والقواد والفقهاء والقضاة والأفراد والجماعات . تدبر ذلك كله فى تاريخ عمر ترعفا عظيما ، وتدبرا حكيما ، وخبرة واسعة النطاق ، ودراية ممتدة الآفاق . ولا عجب ؛ فإنما كان عمر ^(٤) يمتح من معين القرآن الذى لا يزال يفيض ، ويفترق من ينبوع الحديث ^(٥) .

(١) سورة التحريم (٥) . (٢) طهمون . (٣) أذهب ملكهم وعزمهم .

(٤) يستقى . (٥) المعين : الماء الجارعة .

الذى لا يحف ولا يبيض، ^(١) بقرب من الإيمان القوى، والعقيدة الراسخة، والهمة الشاغمة، والنظر الثاقب، والرأى الصائب. وهو بلا ريب غر من النبوة، وآفق مغرٍ سناهاية في القوة، ومُتَخَرِّجٌ في معهد أسمى رسالة، أُشرب مبادئها فننح نبوغاً لم ير التاريخ مثاله.

شجاعته النادرة :

الحق أن جرأة عمر كانت خارقة، وشجاعته بلا ريب صادقة؛ إذ كان مثل الجرأة في أقصى إمكانها، والشجاعة بجميع ألوانها : فهي في صورة الإقدام، كانت عنده في أسمى مقام، وفي صورة العدل والشفقة في الحق في منزلة لا ترام، وفي الشفقة بالأمة والرفق بالضعفاء، في ذروة الملاء، وفي القيام بالواجب بانفت حثاً جملة موضع الإعجاب، على مدى الأحقاب.

ودونك شيئا من بيان ذلك :

شجاعته في صورة الإقدام :

(١) إن النفس الكبيرة، ذات الهمة العالية، أبت على عمر حينما أسلم إلا أن يؤذى كما يؤذى المسلمون، وأن يحتال لذلك احتيالا، يفكك لهذه الشجاعة إجلالا، فيعرض نفسه للطفة مخبرا إياهم بسلامه ؛ لملهم يتألونه بأذى، فيكون قد أصابه ما أصاب إخوانه المسلمين . ولكن هؤلاء الطفة يعرفون من هو عمر، فيكتفون بالإعراض عنه، فيتألم عمر لذلك، ويشكو ألمه إلى أحد إخوانه، فيرشده إلى من يقضى إسلامه؛ لينال آلامه .

فاستمع إليه يقص عليك تلك القصة العجيبة، قال :

« لا أحب إلا أن يصيبني ما يصيب المسلمين؛ فذهبت إلى خالي وكان شريفاً^(١) ففرغت الباب عليه، فقال من هذا؟ فقلت : ابن الخطاب، فخرج إلى^(٢)، فقلت له : أشعرت أنى قد صبوت؟ قال : فعلت؟ فقلت : نعم، قال لا تفعل! فقلت : بل قد فعلت، قال : لا تفعل! وأجاف^(٣) الباب دوني وتركني . قلت : ما هذا بشيء، فخرجت حتى جئت رجلاً من عطاء قريش، ففرغت عليه الباب، قال من هذا؟ فقلت : عمر بن الخطاب، فخرج إلى^(٤)، فقلت له : أشعرت أنى قد صبوت؟ قال : فعلت؟ قلت : نعم، قال : لا تفعل! ثم قام فدخل وأجاف الباب^(٥)، فلما رأيت ذلك انصرفت، فقال لى رجل : تحب أن يُسلم إسلامك؟ قلت : نعم، قال : فإذا جلس الناس في الحجر واجتمعوا أتيت فلانا (رجلاً لم يكن يكتم السر)^(٦) فاصغ إليه، وقل له فيما بينك وبينه : إني قد صبوت، فإنه سوف يظهر عليك ويصبح ويعلنه، فاجتمع الناس في الحجر، بفئت الرجل، فدنوت منه، فأصغيت إليه فيما بيني وبينه، فقلت : أمأمت أنى صبوت؟ فقال : ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا، فما زال الناس يضربونني وأضربهم^(٧)، فقال خالي : ما هذا؟ فقيل : ابن الخطاب، فقام على الحجر فأشار بكمه، فقال : ألا إني قد جرت ابن أختي، فأنكشف الناس عني . وكنت لا أشاء أن أرى أحداً من

(١) يقصده أباجهول . (٢) في المشرئين . (٣) مدت عن ديني وخرجت منه .

(٤) ردّه . (٥) مل إليه . (٦) يقصد بماله هنا : العاص بن وائل السهمي .

والد عمرو بن العاص .

المسلمين يُضْرَبُ إِلَّا رَأَيْتَهُ وَأَنَا لَا أَضْرِبُ، قُلْتُ : مَا هَذَا بِشَيْءٍ حَتَّى يَصِيبَنِي
مِثْلُ مَا يَصِيبُ الْمُسْلِمِينَ، فَأَمَهَلَتْ حَتَّى إِذَا جَلَسَ النَّاسُ فِي الْمَجْرُ وَصَلْتُ إِلَى خَالِي
قُلْتُ : اسْمِعْ، فَقَالَ : مَا أَسْمَعُ ؟ قُلْتُ : جَوَارُكَ عَلَيْكَ رَدٌّ، فَقَالَ : لَا تَفْعَلْ
يَا بَنَ الْخَطَّابِ، قُلْتُ : بَلْ هُوَ ذَاكَ، فَقَالَ : مَا شِئْتُ . فَا زِلْتُ أَضْرِبُ وَأَضْرِبُ
حَتَّى أَهَرَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ .

(٢) إِنْ إِسْلَامُ عُمَرَ — كَمَا عَلِمْتُ — قَدْ غَيَّرَ حَيَاةَ الْمُسْلِمِينَ الْأَجْنَاعِيَّةَ ؛
فَبَعْدَ أَنْ كَانُوا لَا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ إِلَّا هَمْسًا، وَلَا يُؤَدُّونَ الشُّعَائِرَ الدِّينِيَّةَ إِلَّا خُلْسَةً،
مَا زَالَ عُمَرُ يُقَاتِلُ وَيَنَاضِلُ، حَتَّى اسْتَطَاعَ الْمُسْلِمُونَ إِعْلَانُ عِبَادَتِهِمْ . فَالْحَقُّ كَانَ
مُسْتَوْرًا، فَأَبَى عُمَرُ لَهُ إِلَّا ظَهُورًا، وَنُورَ الْإِسْلَامِ كَانَ فِي خَفَاءٍ، فَأَقْسَمَ عُمَرُ أَنْ يَكُونَ
فِي الْأَلَاءِ، قَالَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا يَبْقَى مَجْلِسُ
جُلَسْتُ فِيهِ بِالْكَفْرِ إِلَّا جُلَسْتُ فِيهِ بِالْإِيمَانِ »، وَقَدْ بَلَغَ عِدَدُ الْمُسْلِمِينَ بِعُمَرَ
الْأَرْبَعِينَ، فَهَمُّ فِي قُلُوبِهِمْ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ ذُرَّةً فِي صَحْرَاءٍ، أَوْ هَبَاءً فِي هَوَاءٍ .

إِذَا عَلِمْتُ ذَلِكَ تَحَقَّقَتْ عَظَمَةُ تِلْكَ الْجُرْأَةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا نَظِيرٌ، وَالْعَزِيمَةُ الَّتِي
لَا تَرْهَبُ الْجَمَّ النَّفِيرَ، وَلَا يَبَالِي صَاحِبُهَا عُدْوَانَ الْجَاهِلِ .

(٣) وَمِنَ الشَّجَاعَةِ الَّتِي لَمْ يَرْهَأِ التَّارِيخُ مِثْلَهَا : مَا حَدَّثَ مِنْ عُمَرَ حِينَ
هِجْرَتِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ مِنْ سَبْقِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانُوا يَهَاجِرُونَ
فِي خَفَاءٍ؛ خِيفَةً أَنْ يَخِلَّ بِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْإِيذَاءُ . وَلَكِنْ عَمِرَ سَبْلُكَ مُسْلِكًا آثَرُ:
يَقِفُ الْمَرْءُ أَمَامَهُ مُشْدُوهُمَا، وَيَتَأَمَّلُهُ مَأْخُودًا مِنْ تِلْكَ الْجُرْأَةِ الْبَاهِرَةِ : الَّتِي يَهْرَتُ

القوم فأحرست ألسنتهم ، وأوجبت أنفسهن ^(١) ، فلم يُبدوا اعتراضاً ولا ملامة ، ولم يدفعوا إهانة ، ولم يردوا اعتداءً على كرامة .

وماذا حدث من عمر ؟

روى ابن عباس عن علي بن أبي طالب قال : « ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر إلا غنمياً إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه ، وشكب قوسه ، وانتضى في يده أسهماً ، واختصر عِزَّتَهُ ^(٢) ، ومضى قِبَلَ الكعبة ، والملا من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً ، ثم أتى المقام فصلى متمكناً ، ثم وقف على الخلق واحدة واحدة ، وقال لهم : « شأنت الوجوه ! لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس . من أراد أن تتكلم أمه ، ويؤتم ولده ، ويُرمل زوجته — فليقلني وراء هذا الوادي » ، قال علي : فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم .

فما الذي دهى المشركين وأذهلهم فلم يدفعوا عن كرامتهم ؟ أَوْقُوْهُ عمر البدنية ، أم أدواته الحربية ؟ لم يكن الأمر مقصوداً على القوة البدنية ، ولا الآلات الحربية ؛ فإن فيهم من هو أكبر منه شدة ، وأكثر عُدَّة ، وإنما هي العظمة تحيط بعمر ، إحاطة الهالة بالقمر ، والرهبة تنبعث من أنعامه ، والجلال يُخلق به ، فقوته المعنوية أسمی من قوته الحسية ، تلك القوة التي بثها في قواده وجيوشه فأدالت دولاً عريقة ،

(١) جعلت قلوبهم تحجب : أى تضلرب . (٢) وضع حاله في عقه . (٣) أقاماً على منكبه : وهو مجتمع رأس العضد والكف . (٤) أنزعها من جعبتها ووضعها في يده استعداداً . (٥) النزة : عضد في أسفلها حديدة ، واختصرها : وضعها في خصره أى وسطه . (٦) قبضته . (٧) الأنوف . (٨) ثقيله .

وأزالت ممالك مؤتلة، وأقام على ألقاضها مملكة وطيدة، أدارها على تباعد أطرافها إدارة رشيدة .

شجاعته في صورة العدل :

كان عمر لا يعرف في العدل هواة، ولا يخشى في الحق لومة لائم؛ فالكبير عنده صغير حتى ينصف منه، والصغير كبير حتى ينصف له؛ فهذا جبلة بن الأيهم ملك الفسانيين : كتب إليه يستأذنه في القدوم عليه ، فأذن له ، فقدم في خمسمائة من قومه فقابلته عمر ، ورحب به وأكرمه ، وأدنى مجلسه ، ولما خرج للصبح أخذ معه جبلة ، فيينا هو يطوف بالبيت إذ داس إزاره رجل من بني فزارة ، فأنحط ، فرفع جبلة يده ولطم الفزاري لطمة هشتت أفضه ، فاستعدى عليه الخليفة ، فبعث إلى جبلة فأتاه ، فقال : ما هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إنه تعمد حل إزارى ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف ، قال الخليفة : قد أقررت ، فإما أن ترضى الرجل ، وإما أن أُقَيِّده منك ، قال جبلة : ماذا تصنع بي ؟ قال : أمر بهشم أنفك كما فعلت ، قال : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ، قال : إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والمافية ، قال جبلة : قد ظننت يا أمير المؤمنين أنى أكون في الإسلام أعز منى في الجاهلية ، قال عمر : دع عنك هذا ؛ فإنك إن لم ترض الرجل أقدته منك ، قال : إذا أنتصر . قال : إن تنصرت ضريت عنقك ؛ لأنك قد أسلمت ، فإن ارتددت قتلتك ، فلما رأى جبلة الصديق من عمر قال : أنا ناظر في هذا ليلتي هذه . وقد اجتمع بباب عمر

(١) طلب منه النصرة والانتقام من المعتدى عليه . (٢) أخص له منك .

من الفسائين والفسارين خلق كثير، حتى كادت تكون بينهم فتنة، فلما أمسوا أذن له عمر في الانصراف؛ ليفكر الليلة في أمره كما طلب، وفي الليل فرجيلة إلى الشام، ثم إلى القسطنطينية حيث تنصر هو وقومه غير ما سوف عليهم.

وروى أنس قال: بينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك، فقال عمر: لقد عدت بجير، فما شأنك؟ قال: سابقت على فارس ابناً لعمر بن العاص (وهو يومئذ أمير على مصر) فسبقت، فجعل يقمعني بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين، فبلغ ذلك عمرًا أباه، فخشى أن آتيك، فخبسني في السجن، فأنقذت منه، فهذا الحين جئتك. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولئك فلان، وقال للمصري: أقم حتى يجيء، فقدم عمرو، وشهد الحج، فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس، وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه، قام المصري ورعى إليه عمر بالدرة.

قال أنس: ولقد ضربه ونحن نستهي أن يضربه، فلم يتزع حتى أحببنا أن يتزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين، قال: يا أمير المؤمنين، قد استوفيت واشتفيت، قال: ضعها على صلّة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين، قد ضربت الذي ضربني، قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد، حتى تكون أنت الذي تتزع.

ثم قال : يا عمرو ، متى تعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ فجعل عمرو يستدر إليه ، ويقول : إني لم أشعر بهذا .
شدة عمر على عماله :

كان عمر شديداً في الحق على عماله ، عظيم الرقابة لهم ، أعظم عماله عنده منزلة كأقل أفراد الرعية أمام الحق ، لا يغادر لهم صغيرة ولا كبيرة إلا أخذهم عليها ؛ يستدعيهم في موسم الحج لأقل شكاية ، ويناقشهم فيها جهره أمام الجميع ؛ فإن كان الحق في جانب الشاكي انتصف له ، وإلا عاقبه ، فكان الولاة يتجافون عن الظلم خوف التشهير في موسم الحج ، وأفراد الرعية لا يمنحون إلى الشكايات الباطلة خشية حلول العقاب . ترى ذلك في خطبته الآتية :

«أيها الناس ، إني والله ما أرسل عمالاً ليضربوا أشارك^(١) ، ولا لياخذوا أموالكم ، ولكنني أرسلهم ليعلموكم دينكم ، وسنة نبيكم ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إليّ ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه» .

فوثب عمرو بن العاص ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أرايتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية ، فادب بعض رعيته إنك لتقصه منه ؟ قال : «إي والذي نفس عمر بيده إذا لأقصنه منه ، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ؟ ألا لا تضربوا المسلمين قتلهم ، ولا تجروهم فتفتنهم^(٢) ، ولا تمنعهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تزلوهم^(٣) الفياض فتضيعهم» .

(١) جمع بشر : ظاهر الجلد . (٢) التجبير : حبس الجيش في أرض العدو ، وعدم المبادرة إلى إرجاعه وذلك يوقع الجنود في الفتنة أي الإجم واختلاف الآراء ؛ وذلك لاشتياقهم إلى أهلهم . (٣) الفياض : جمع غيضة : وهي الشجر الكثير اللث في مفيض الماء .

وقد استدعى عمر كثيراً من عظماء الولاية بشكايات من بعض الأفراد : كسعد ابن أبي وقاص الفاتح العظيم شكاه بعض أهل الكوفة فوجده بريئاً .

وشكى إليه عمار بن ياسر وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام ، ولعلك تذكر ما لاقاه آل ياسر من التعذيب حيناً لبؤا الدعوة الإسلامية ، وكان عمار أميراً على الكوفة فاستقدمه أمير المؤمنين مع وفد من أهل الكوفة ، ثم سأل الوفد عن مبعث ألمهم من عمار ، فقال بعضهم : إنه ليس ذا كفاية ولا دراية ، وقال بعضهم : إنه لا يفقه معنى لِمَا اسْتَعْمَلَ فِيهِ مِنَ الْإِمَارَةِ ، فاخبره عمر اختبار خبير بالكوفة وأهلها ، ولم يعطثن إلى إجابته ، فعزله .

وكان يراقب الولاية مراقبة دقيقة ؛ فمن رآه في سعة لم يعلم مصدرها صادر ماله كله أو بعضه ، وكان يمنعهم من التجارة منعاً باتاً .

شدة عمر على نفسه وأهله :

وكما كان عمر شديداً على عماله ، كان شديداً أيضاً على نفسه وآله ؛ فكان يرى أنه لا ينبغي له أن يتناول من مال المساكين إلا بمقدار ما يعيش به أو سَطْرَ رجل من رعيته ، فكان عطاؤه لا يفي بحاجة بيته ، وكثيراً ما اضطر إلى الاقتراض ، وإرثاء الثياب المرقعة :

(١) ولما رأى بعض الصحابة ما يقاميه عمر من الشدة أرادوا أن يكلموه في ذلك ، ولكنهم هابوه ، فأتوا أم المؤمنين حفصة بنته ، وأعلموها بما أرادوا ، وطلبوا إليها أن تخبره برغبتهم دون أن تذكر له أسماءهم ؛ خشية غضبه عليهم ، فقال

لها : يا حفصة، ألسنت تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ فقالت : بلى ، قال : « ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ؟

^(١١) وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي لبث في النبوة كذا وكذا سنة ، لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خير ؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله قريتم إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها ارتفاع ، فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ، ثم أمر بالمائدة فرفعت ، ووضع الطعام على الأرض ؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله كان ينام على عباءة مثنية ، فثبثت له ليلة أربع طاقات ، فنام عليها ، فلما استيقظ قال : منعتموني قيام الليلة بهذه العباءة ، اشوها اثنتين كما كنتم تثنونها ؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله كان يضع ثيابه لتفسل ، فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة ، فما يجد ثوباً يخرج به إلى الصلاة ، حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صَنَعَتْ له امرأة من بني زُفَرَ كسامين : إزاراً ورداء ، وبعثت إليه بإحدهما قبل أن يبلغ الآخر ، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ، ليس عليه غيره قد عقد طرفيه إلى عنقه ، فصنع كذلك ؟

يا حفصة، قد كانت لي صاحبان سلكا طريقاً، فان سلكت غير طريقهما
سُلك بي طريقٌ غيرُ طريقهما، وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد، لعلِّي أدركهُ
معهما عيشهما الرغيد .

(ب) « خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب في جيش إلى العراق ،
فلما قفلا مرّا على أبي موسى الأشعري وهو أمير البصرة ، فرحب بهما وسهّل ،
ثم قال : لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به لفعلت ، ثم قال : لي ، ها هنا مال من مال
الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين ، فأسلفكاهُ ، فتبتاعان به متاعاً من متاع
العراق ، ثم تبيعانه بالمدينة ، فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ، ويكون الربح
لكما ، فقالا : ودِدْنَا ذلك ، ففعل ، وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما
المال ، فلما قدما بأما فارقهما ، فلما دفعا ذلك إلى عمر ، قال : أَكُلَّ الجيش أسلفه
مِثْل ما أسلفكما ، قالوا : لا ، فقال عمر بن الخطاب : ابنا أمير المؤمنين فأسلفكما ؟
أذبا المال وربحه ، فأما عبد الله فسكت ، وأما عبيد الله فقال : ما ينبغي لك
يا أمير المؤمنين هذا ، لو نقص هذا المال أو هلك لضمته ، فقال عمر : أدياه ،
فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله ، فقال رجل من جلساء عمر : يا أمير المؤمنين ،
لو جعلته قراضاً ، فقال عمر : قد جعلته قراضاً ، فأخذ عمر رأس المال ونصف
ربحه ، وأخذ عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب نصفَ ربح المال » رواه
الإمام مالك .

ولما تحسنت العلاقات بين أمير المؤمنين وملك الروم تهادت زوجُ أمير المؤمنين :
أم كلثوم بنتُ علي بن أبي طالب ، وملكةُ الروم ، فأخذ عمر الهدية التي أرسلتها

ملكة الروم وكان فيها عقد فاجر، وجمع المسلمين مشاوراً إليهم في أمر هذه الهدية، فكان الرأي أنها لحفصة في مقابل هديتها، ولكن عمر أبى إلا أن يضمها إلى أموال المسلمين في بيت مالهم، وردّ على أم كلثوم بقدر ما أنفقت .

وأهدى أبو موسى الأشعري إلى حاتكة امرأة عمر طيفسة قدرها ذراع وشبر،^(١) فدخل عليها عمر فراها، فقال أتى لك هذا ؟ فقالت : أهداها لي أبو موسى الأشعري، فأخذها عمر فضرب بها رأسها حتى نفض رأسها، ثم قال : على بابي موسى الأشعري وأتعبوه فأتى به قد أتعب ، وهو يقول : لا تسجل على يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : ما يملك على أن تهدى لنسائي ؟ ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه، وقال : خذها ؛ فلا حاجة لنا فيها .

فتأمل هذه الشدة من عمر على نفسه وأهله حتى يكونوا القدوة المثل والأسوة الفضلى ؛ وتدبر هذه العفة العظيمة عن مال الدولة . إنها لفحة جديرة بالإجلال ، وحقيقة بأن تكون مضرب الأمثال .

وكان عمر إذا نهى الناس عن أمر جمع أهله فقال : « إني نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة » .

اللهم إن هذه العدالة المطلقة خليقة بأن تحمل في القفوس المكنانة التي لا تنازع،

وتتال في التاريخ المتتلة التي لا تضارع .

(١) الطيفسة : بساط له نمل رقيق ، وفي ضبطها لغات كثيرة أعلاها كسر الطاء والقاف .

(٢) تحرك .

وليس ذلك بعزير على الفاروق الذي كان ينتصف من نفسه وولده : روى
الأحنف قال : كنت مع عمر بن الخطاب فلقبه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ^(١) ،
انطلق معي فأعديني على فلان ؛ فإنه قد ظلمني ، فرفع عمر الدرة خفق بها رأسه ،
فقال : تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم ، حتى إذا شغل في أمر من أمور ^(٢)
المسلمين أتيتموه ... أعديني أعديني . فأنصرف الرجل وهو يتذمر ، فقال عمر :
على الرجل فأتني إليه المخفقة ، وقال امتثل ، فقال : لا والله ، ولكن أدعها لله ولك ،
قال : ليس هكذا ، إما أن تدعها لله إرادة ما عنده ، أو تدعها لي فأعلم ذلك ،
قال : أدعها لله ، فأنصرف ، ثم جاء عمر يمشي حتى دخل منزله ونحن معه ، فصل
ركعتين وجلس فقال : « يا بن الخطاب ، كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالاً
فهذاك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب الناس ، بخاءك رجل
يستعديك فضربته ! ما تقول لربك إذا أتته ؟ » ، فجعل يعاتب نفسه في ذلك
معاتبة شديدة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض .

فانظر إلى هذه الحاسبة الدقيقة للنفس . إنها لا تصدر إلا عن ضمير حي ،
وقلب نقي ، ومراقبة للولي جل وعلا .

شجاعة عمر في تقدير تبعته ^(٣) :

لقد كان عمر يقتر تبعته قدرها ، ويعرف خطرها ، ويدرك عبثاً ووزرها ،
دل على شعوره بذلك أول خطاب ألقاه بعد مبايعته ، عقب وفاة أبي بكر رضى الله
عنهما قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

- (١) انصرف . (٢) ضرب . (٣) يوم قسمه ويثود . (٤) العصا .
(٥) خذ المثل أي اخبرني مثل ما ضربتك . (٦) سؤيته .

« إِنَّمَا مَثَلُ الْعَرَبِ مَثَلُ جَلِّ أَنْفٍ أَتَبَعَ قَائِدَهُ، فَلْيَنْظُرْ قَائِدُهُ أَيْنَ يَقُودُهُ،
أَمَّا أَنَا فَوَرَبُّ الْكُتُبَةِ لَا حِيلَ لَكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ » .

عبارة جَدَّ قصيرة، لكنها ذات معانٍ غزيرة؛ إذ فيها دعوة، ووعد، ووعيد،
وقوة في حزم وعزم ويقين :

(١) ففى قوله : « مثل العرب كمثل الجمل الأنف أتبع قائده » دعوة للأمة
إلى الطاعة التامة لكل ما يدعو إليه الأمير، كالجمل الذلول المتقاد لكل من يقوده؛
لاضطراره إلى ذلك بحكم البرة^(٢) التي تؤلم أنه .

وهذا مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمن كالجمل الأنف إن
قيد انقاد، وإن أسيخ على صخرة استناخ »، فمعر يصف العرب بما يصف به النبي
صلى الله عليه وسلم المؤمن، وهو يطلب منهم أن يكونوا كذلك، ولكنه صور
الطلب بصورة الخبر، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإن هذا النوع من الأساليب
أبلغ أثرًا في النفس وأدعى إلى الطاعة، وأجلب للانقياد : كما تقول لمن تحسه على
فعل الخير : إنك كريم، جواد، تحب الخير، وتسرع إليه، فإن ذلك يحرك فيه
عاطفة الخير، ويهيج أريحيته، أما إذا قلت له مثلاً : لماذا أنت بخيل ؟ ما هذا
الشح بالمال القليل ؟ فإن هذا قد يدعوه إلى العناد، والحيد عن طريق الرشاد .

وقوله : « فلينظر قائده أين يقوده : بيان للتبعية العظيمة التي نيطت به، والمهم
الخطير الذي ألقى على عاتقه، وأن ذلك يتطلب حزمًا وعزمًا، وتدبيرًا وتفكيرًا؛
لتقاع أمور الدولة مواقمها، ولا تخطئ أحكامها مواضعها .

(١) هو الذي أوجعت أنه الخرامة .

(٢) حلقة تجعل في أنف البعير من نحاس ونحوه، والحشاش من خشب، والخرامة من شعر .

وعمر بهذا يوضح لرعيته واجبه، ويصوّر لم مسؤوليته، ويقطع على نفسه عهداً،
أن يسلك بالأمة سبيلاً قصداً .^(١)

وقوله : « أما أنا فو رب الكعبة لأحملنكم على الطريق » قسمٌ عظيم ، ووعد كريم ، أمام الأمة بسلوك الطريق القويم ، وفي هذا القول أيضاً وعيد للمخالفين ؛ بأنه سيضطرهم بالشدة إلى سلوك هذا الطريق ، إن لم يُجِدْ معهم التنبيه الرقيق .
دل على ذلك قوله : « لأحملنكم » فان العرب يقولون : حمّله على الأمر : إذا أغراه به ، أو اضطره إلى فعله .

فهذا الخطاب على إيجازه حوى ما لا تحتويه أكبر خطب العرش في الدول الحالية في أيامنا الحاضرة ، على أن عمر قد توج خطابه بإثاقه بدقة لاتعد لها دقة ، وحزم دونه كل حزم ، وتديبر يفوق كل تديبر ، وعدالة مطلقة : دعت إلى شدة حكيمة ، وشفقة كريمة ، فاستعمل الشدة مع عماله ونفسه وأسرته ، واستصحب الشفقة مع عامة رعيته ، وكان بذلك مؤدباً حكيماً ، وسياسياً عظيماً ، وأميراً خبيراً ، وأخاً كريماً ، وأباً رحيماً .

بعض مظاهر لينه وشفقته ، وشعوره بتبعته

كان عمر يعدُّ نفسه خادماً للأمة ، مسئولاً عن كل صغيرة وكبيرة تقع في أنحاء البلاد الإسلامية ، فكان يقول : « لو أن حملاً هلك ضياعاً بشط الفرات تخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب » . وكان يحمل دواوين القبائل إلى حيث تقيم ،

ويوزع عليها الأعطيات ، ولا يقب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب ، فيعطين في أيديهن جميعاً .

وكان يطوف بيوت فقراء المسلمين في المدينة ، ويقرع أبوابها سائلاً النساء : **أَلَكُنَّ حَاجَةً ؟** أتريد إحداكن أن تشتري شيئاً ؟ فيرسلنه في حوائجهن يقضيهن لها من الأسواق ، ومن لم يجد عندها مالا تشتري به اشترى لها من ماله الخاص .

ومن ذلك ما ورد عن الأوزاعي : أن عمر بن الخطاب خرج في سواد الليل ، فرآه طلعة ، فذهب عمر فدخل بيتاً ، ثم دخل بيتاً آخر ، فلما أصبح طلعة ذهب إلى ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مُتَمَعِدَةٌ : فقال لها : ما بال هذا الرجل يميء إليك ؟ قالت : إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا : يُحْضِرُ لِي مَا يُصْلِحُنِي ، وَيُخْرِجُ عَنِّي الْأَذَى ، فقال طلعة : نكثك أمك يا طلعة ؛ لَعَنَاتُ عُمَرَ تَسْتَعِ !

ومن ذلك الحكاية المشهورة التي رواها أسلم مولى عمر قال : خرجت مع عمر ابن الخطاب إلى حَرَّةٍ ^(١) وأقيم ، حتى إذا كنا بِبَصْرَاءَ ^(٢) إذا نارٌ تَوْرَثُ ^(٣) ، فقال : يا أسلم ، إنني أرى هؤلاء رجلاً قصر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا ، نخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان لها ، وقدر منصوبة على النار ، وصبيانها يتضاغون فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء «وكره أن يقول : يا أصحاب النار» قالت المرأة : وعليك السلام ، فقال : أَدُّوْهُ ؟ قالت : أَدُّنُ بخير أودع ، قال : فما بالكُم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد ، قال : فما بال هؤلاء الصبية

(١) الحرة : أرض ذات حجارة سود ، ورواق : حصن بالمدينة . (٢) موضع بقرب المدينة .

(٣) توقد . (٤) يصيحون .

يتضاغون؟ قالت : الجوع، قال : وأى شيء في هذه القدر؟ قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر ، فقال : إني رحمك الله ما يدري عمر بكم ؟ قالت : يتولى أمورنا ويفعل عنا !

فأقبل على^(١)، فقال : انطلق بنا ، نخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلاً فيه كبة^(٢) شحم ، فقال : احمله على^(٣)، قلت : أنا أحمله عنك ، قال : احمله على^(٤)، مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك أقول : أنا أحمله عنك ، فقال في آخر ذلك : أنت تحمل عني وزري يوم القيامة ؟ لا أم لك ! فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى اتهمنا إليها ، فالتى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئاً ، وجعل يقول : ذرى وأنا أحرل^(٥)ك ، وجعل ينفخ تحت القدر ، وكان ذا لحية عظيمة ، فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته ، حتى أنفضج وأدم القدر ، وقال : ابني شيئاً ، فأنته بصحفة فأفرغها فيها ، ثم جعل يقول : أطعمهم وأنا أسطح لك ، فلم يزل حتى شبعوا ، ثم خلى عندها فضل ذلك ، وقام وقتت معه ، فجعلت تقول : جزاك الله خيراً ، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين ، فيقول : قولى خيراً ، إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجَدْتَنِي هناك إن شاء الله ، ثم تتحنى ناحية ثم استقبلها وربص^(٦) مرّيض السبع ، فجعلت أقول : إن لك لساناً غير هذا ، وهو لا يكلمني ، حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ، ثم ناموا وهدموا ، فقام وهو يحمّد الله ، ثم أقبل على

(١) العدل : الجرائق : شبه الفزارة . (٢) قطعة . (٣) يقول : ذرى الدقيق لآخذ لك منه حريرة ، والحريرة : الحساء المطبوخ من الدقيق والدم والماء . (٤) وضع فيها الالدام . (٥) أبسطه حتى يبرد . (٦) جلس جلوس الأسد ، وهو يشبه برك البعير .

فقال : يا أسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم .

ومن ذلك ما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال :

خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه في ليلة من الليالي يطوف ويتفقد أحوال الناس ، فرأى بيتا من الشعر مضروبا لم يكن قد رآه بالأمس ، فدنا منه ، فسمع أنين امرأة ، ورأى رجلا قاعدا فدنا منه ، وقال له : من الرجل ؟ فقال له : رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله ، قال : فما هذا الأنين ؟ قال : امرأة تتخض قد أخذها الطلق ، قال : فهل عندها أحد ؟ قال : لا ، فانطلق عمر والرجل لا يعرفه ، فناء إلى منزله ، فقال لامرأته (أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بنت فاطمة الزهراء رضى الله عنهما) : هل لك في أجرة قد ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة تتخض ليس عندها أحد ، قالت : إن شئت ، قال : نخذي معك ما يصلح للسراة من الخرق والدهن ، وآتي بقدر وشحم وجبوب ، وجاءت به ، فحمل القدر ، ومشيت خلفه حتى البيت ، فقال : ادخلي إلى المرأة ، ثم قال للرجل : أوقد نارا ، ففعل ، فجعل عمر ينفخ النار ويضرمها ، والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضج الطعام ، وولدت المرأة . فقالت أم كلثوم رضى الله عنها : يا أمير المؤمنين ، بشر صاحبك بسلام ! فلما سمعها الرجل تقول : يا أمير المؤمنين ، ارتاع ونجمل ، وقال : وانجملته منك يا أمير المؤمنين ، أهكنا تفعل بنفسك ؟ قال : يا أخا العرب ، من ولى شيئا من أمور المسلمين ينبغي له أن يطلع على صغير أمرهم وكبيره ، فإنه عنه مسئول ، ومتى غفل عنه خسر الدنيا والآخرة .

ثم قام عمر رضى الله عنه، وأخذ القدر وحملها إلى باب البيت، وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر للرجل : قم إلى بيتك ، وكل ما يبق في البرمة ، وفي غد أنت وإيتنا، فلما أصبح جاءه ، فجهزه بما أغناه به وانصرف .

قال عبد الرحمن بن عوف : دعاني عمر بن الخطاب ذات ليلة، وقال : قد نزل بباب المدينة قافلة، وأخاف عليهم إذا ناموا أن يسرقَ شيء من متاعهم، فضيت معه، فلما وصلنا قال لى : نم أنت، ثم إنه جعل يحرس القافلة طول ليلته .

هذه حوادث صغيرة، ولكنها مرآة لتلك النفس الكبيرة، ذات العناية الفائقة، والشفقة العظيمة، والتواضع الجم ، والمظمة الخالدة .

فله ذلك يا عمر! لقد أبرزت العدالة الإسلامية، في صورة جليلة قية، وحققت المساواة تحقيقا شطامن له الروس إعظاما ، وتمشع له القلوب مهابة واحتراما ، وصورت الشعور بالتبعة ، صورة غير مصطنعة ، وفهمت واجبك فهما متينا ، فقامت به قياما بالإعجاب قينا .

ولله عظمك يا عمر! لقد تجلت عدالتك المطلقة في شدة حكمة، وشفقة رحيمة وثقة بالله عظيمة .

أليس عظيمًا من كان يسير خلف البريد إذا قدم من أحد الثغور، أو من ميدان القتال، ويقف بالأبواب قائلاً للنساء : « أزواجكن في سبيل الله، وأتن في بلد رسول الله، إذا كان عندكن من يقرأ فيها، وإلا فاقربن من الأبواب حتى أقرأ لكن » ثم يقول : « إن البريد يخرج يوم كذا ، فاكتن حتى نبعث بكتبكن » ، ثم يدور

عليين بالدواة والقراطيس والقلم ، ويقول : « ادين من الأبواب لأكتب لكن ما تشأن أن تقلنه لأزواجكن » ، ثم يجمع الرسائل ويسلمها إلى البريد .

وأعظم مما مر ، وأحفظه بالعبر : التي لا يدركها إلا أولو البصر — ما رواه الفضل بن عميرة : أن الأحنف بن قيس (سيد بنى حنيفة الذي قيل فيه : إذا غضب غضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب) قدم على عمر بن الخطاب في وفد من العراق في يوم صائف شديد الحر ، وهو محتجز بماءة يهناً بغيراً من إبل الصدقة فقال : يا أحنف ، دع ثيابك ، وهلم فاعن أمير المؤمنين على هذا البعير ؛ فإنه من إبل الصدقة : فيه حق اليتيم والأرملة والمساكين ، فقال رجل : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ، فهلا أمرت عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا ؟ قالت فت إليه عمر وقال : « وأى عبد هو أعبد مني ومن الأحنف هذا ، إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين ؛ يجب عليه لم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة » .

توثيق الصلات بين عمرو بن من جاوره من الملوكة :

- (١) قد ذهب عمر بنفسه إلى الشام ، وعاهد أهل فلسطين على حفظ أنفسهم ، وأمنهم على أموالهم ومعابدهم ، وخلّى بينهم وبين شعائر دينهم .
- (٢) ولما ترك ملك الروم الحرب ، وكتب عمر ، وتقرب إليه أجاب طلبته ، وحقق رغبته وسير إليه البريد بما يريد ، وتهادت زوجته أم كلثوم بنت علي ، وملكة الروم ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

(٣) وَقِيلَ تَضَرَّعْ مَلِكُ «الْبَاب»^(١)، وَتَنَازَلَ لَهُ عَنِ الْجُزْيَةِ لِقَاءِ مُسَاعِدَتِهِ عَلَى حَرْبِ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ عُمَرُ بِذَلِكَ مُشْتَرِعًا حَكِيمًا، وَسِيَاسِيًّا عَظِيمًا .

(٤) وَلَمَّا جَاءَ بِالْهَرَمْزَانَ (مَلِكُ الْأَهْوَازِ) أَسِيرًا حَامِلَهُ بِالْعُطْفِ وَالرَّحْمَةِ ، وَأَقَامَهُ بِالْمَدِينَةِ مَكْرَمًا ، وَفَرَضَ لَهُ عَطَاءً ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ قَدْ نَقَضَ عَهْدَ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى حَامِلِهِ بِالْبَصْرَةِ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ فِي التَّجَافِي عَنِ الظُّلْمِ ؛ اسْتِنْقَاءَ لَوْلَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، وَاسْتِدْأَمَةَ لِعَوْنِ اللَّهِ .

(١) مَدِينَةُ كَبِيرَةٌ عَلَى بَحْرِ الْخَزَرِ ، وَهِيَ ثَمَرٌ عَظِيمٌ .

عائشة رضى الله عنها

(١) كلمة موجزة عنها :

هى السيدة الطاهرة المبرأة أم المؤمنين : عائشة ، بنتُ السابق الأفاضل والصدِّيق الأَكَلِ ، والخليفة الأول : أبى بكر عبد الله بن أبى حفافة التيمي القرشي . وأُمها أمُّ رومان بنتُ عامر بن عويمر الكِثْثَانِيَّةُ ، فهى فى المجد الأثيل ، والشرف التليد ، وزادها نبلاً وفضلاً ، وقدرًا وذكراً ، أنها زوجُ خاتمِ الأنبياء ، وأشرف الأنام : سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . عقد عليها رسول الله صلى عليه وسلم قبل الهجرة ، وبني عليها بعدها .

وقد أقامت السيدة عائشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين ، وتوفيت رضى الله عنها فى رمضان سنة ٥٨ من الهجرة ولها ست وستون سنة ،^(١) ودفنت بالبقيع .

(٢) عليها وفضلها :

كان للذة التى قضتها السيدة عائشة مع النبي صلى الله عليه وسلم كبير الفضل فى تخريجها فى الفقه الإسلامى واحدةً زمانها ، وفى رواية الأحاديث الشريفة فريدةً إبانها ؛ فقد روى لها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف ومائتا حديث وعشرة ، ذكر البخارى منها فى كتابه مائتين وثمانيةً وعشرين حديثاً ، ولم لا تكون كذلك

(١) مدفن المدينة .

وهي زوج رسول الله، وبنت صديقه وخليفته ؟ قال عروة : كانت عائشة أعلم الناس بالقرآن والحديث والشعر، وكانت كلما ذكرت أمام «عطاء بن أبي رباح» قال : كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة .

وكانت فصيحة اللسان، طليعة البيان ؛ قال معاوية : « لم أسمع خطيباً أبليغ ولا أفصح من عائشة، وقال ابن قيس : سمعت أبا بكر وعمر وعلياً وعثمان بن عفان، فلم أجد في أقوالهم الجزالة التي تفرق في كلام عائشة .

وكان لها ضلع كبير، وقدم راسخة في علمي التاريخ والنجوم :

دل على ذلك ما يأتي :

(١) توضيحها التاريخي العظيم لرد النجاشي على وفد المشركين، الذي ذهب إليه بهدية عظيمة ؛ ليغريه بطرد المهاجرين المسلمين من بلاده ، فقال : « لا حاجة لي بها ؛ فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فاطمهم فيه » ، ولم يعرف مغزى هذا الكلام ، وما يشير إليه من حوادث تاريخية إلا السيدة عائشة ؛ فإنها أوضحت — بذكر المؤامرة التي دبرت لإبعاده عن الملك وإخفاقها — أيضاً أبان أنها في التاريخ أطول القوم بقاءً، وأوسعهم اطلاعاً .

(ب) وفدت عائشة بنت طلحة على هشام بن عبد الملك ، وكانت موضع إعجابه في معرفة أخبار العرب وأشعارها وأيامها، فما ذكر من ذلك شيء إلا أفاضت

(١) عائشة بنت طلحة أم كلثوم بنت أبي بكر .

فيه، وما طلع نجم ولا غار إلا سَمَّتهُ، فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت : أخذتها عن خالتي عائشة .

(٣) رجوع كبار الصحابة إليها في المسائل الدينية :

كانت السيدة عائشة بغير علمها ، وعظيم فضلها ، وبعد نظرها ، وثاقب فكرها ، وفناذ بصيرها — مرجعَ أجلاء الصحابة في المسائل الدينية ، والمشكلات الشرعية ؛ يستضيئون بقدسها ، ويبتدون بنور نبراسها ، قال القاسم بن محمد : اشتغلت عائشة بالفتوى زمن أبي بكر وعمر وعثمان فمن بعدهم رضي الله عنهم، وقال أبو موسى الأشعري — رضي الله عنه : — ما أشكل علينا — أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — حديثٌ قط، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً .

(٤) تصدَّقها في سبيل الله :

لقد أثَّرت السيدة عائشة من زوجها العظيم — صلى الله عليه وسلم — المبادئ الإسلامية السامية، والأخلاق المحمدية العظيمة ؛ فكانت على أكبر جانب من الزهد في الدنيا، والقناعة بالسير منها، مع أشدَّ رغبة في الصالحات، والاستكثار من الصدقات ؛ وبذا كانت أمَّ المحسنين، كما كانت أمَّ المؤمنين ؛ ويحدثنا عروة ابن الزبير أنه رآها تصدَّق بسبعين ألف درهم في سبيل الله، وهي في قميص خَلَقَ^(١)، ودرع مُرَقَّع .

ويقص علينا ابن سعد في طبقاته عن أم ذرة أن ابن الزبير بعث إلى عائشة بمال في غرَّارتين يبلغ مائة ألف، فدعت بطلق — وهي يومئذ صائمة — فجعلت تقسم

في الناس، حتى استغلت المائة ألف، فلما أمست قالت: يا جارية، هاتي فطيري، فقالت أم ذرة: أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تُفطرين عليه؟ فقالت: لا تُعَنِّفْنِي، لو كنت أذكرتك لفعلت.

فأمل مبلغ حب الإحسان الذي شغلها عن أمرها، فلم تبق من ذلك المال الوافر درهماً لفطرها، وقسه على مبلغ اهتمامنا في صيامنا بإعداد أشهى المطاعم لفطرتنا، تر الهوة واسعة، والمسافة بيننا وبينها شاسعة، ولا غرابة؛ فهذا هو المأمول، من قرينة أسمى رسول، صلى الله عليه وسلم؛ فقد كان أجود من الريح

المرسلة، والبحر الخضم، مع قناعة وزهد ليس لعظمهما حد.
 وَشَدَّ مِنْ سَخَبٍ أَحْشَاءُهُ وَطَوَى ^(١) * تَحْتَ الْحِجَارَةِ كَشْحًا مَتَرَفَ ^(٢) الْأَدَمِ ^(٣)
 وَرَأَوْدَتِهِ ^(٤) الْجِبَالُ الشَّمُّ مِنْ ذَهَبٍ * عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا ^(٥) أَيْمًا شَمْسٍ ^(٦)
 وَأَكْكَدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا ضُرُورَتُهُ * إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى الْعِصَمِ ^(٧)

(٥) بِرُّهَا بِأَزْوَاجِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

ما كانت عليه السيدة عائشة من الحظ الوافر من مكارم الأخلاق جعلها تشمل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعطف كبير، ومعاملة سامية؛ فكانت تحسن لقاءهن إذا قدمن، وتعودهن إذا مرضن، وتثني عليهن الثناء الجميل في غيبتن :

- (١) جوع . (٢) جمع حشا وهو : ما انضمت عليه الضلوع . (٣) الكشح : ما بين الخلاصة إلى الضلع الخلف . (٤) ناعم من الترف وهو النومة المقرطة . (٥) الجبلد . (٦) طلبت منه . (٧) البالية . (٨) أعرض عنها وارفع غاية الارتفاع . (٩) جمع عصمة : وهي الحفظ .

قالت في السيدة سودة بنت زمعة : ما رأيت امرأة أحب إلى أن أكون
في مسلاخها من سودة^(١) .

وقالت في السيدة زينب بنت جحش : لم أر امرأة قط خيراً في الدين من
زينب، وآتق الله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً^(٢)
لنفسها في العمل الذي تصدق به، وتقرب به إلى الله تعالى، ما عدا سورة من حدة
كانت تسرع منها الفتيحة^(٣) .

(١) في جلدها، والفرس : في هدنها ومسيرتها وطريقتها . (٢) تركا للزين . (٣) الرجوع .

الآيات القرآنية الكريمة

(١) قال الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ . وَمَا تَنَزَّلْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ . وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ . وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * ﴾

[سورة النساء (١٦٣ - ١٦٥)]

المفردات

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ : بلغناك .

الوحي : ما يلقي إلى الأنبياء من عند الله تعالى بمنام ، أو إلهام ، أو كلام ،

أو إرسال ملك .

الْأَسْبَاطُ : أولاد يعقوب : جمع سِبْط .

الزَّبُور : الكتاب الذي أوحى به إلى داود .

مُبَشِّرِينَ : مخبرين بما يسر الطامعين من الثواب .

مُنْذِرِينَ : مخبرين بما يخيف العاصين من العقاب .

عَزِيزًا : قويًا غالبًا على أمره ، ليس له نظير .

حَكِيمًا : مُحْكَم صُنْعُهُ وَيَتَّقَنُهُ .

الشرح

(١) اقترح أهل الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم أن يتل عليهم كتاباً من السماء، فرد الله عليهم بهذه الآية الشريفة محتجاً بأن شأنك في الوحي والإرسال، كشأن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فليس أمرك بدعا، ولا رسالتك غير مسبوقة، ولم يأت أحد منهم بما يطلبون، قال تعالى :

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ^(١) ۝ ﴾ .

(٢) أشارت هذه الآية الكريمة إلى أن رسل الله إلى عباده كثيرون : منهم من أخبر الله به نبينا صلى الله عليه وسلم، ومنهم من لم يخبره به . وفي ذلك دليل على أن معرفة الرسل بأعيانهم ليست بشرط لصحة الإيمان، بل من شرطه أن يؤمن بهم جميعاً؛ إذ لو كانت معرفة كل واحد منهم شرطاً لقص علينا كل ذلك، وإنما يجب علينا معرفة من ورد ذكرهم في القرآن الكريم والحديث الشريف .

(٣) وفي هذه الآية دلالة على أن أصول الأديان واحدة : وهي الإيمان بالله واليوم الآخر، وإفراده تعالى بالعبادة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ^(٢) ۝ ﴾ .
 ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَيَسعَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ^(٣) ۝ ﴾ .

(١) سورة الأحقاف (٩) . (٢) سورة الأنبياء (٢٥) . (٣) سورة الشورى (١٣) .

واختلاف الفروع وصُور العبادات رحمةً من الله تعالى بعباده، لتفاوت طبقات الأمم في الأحوال التي عليها مدار التكليف؛ فإن الله تعالى فطرهم على أنحاء شتى، وأطوار متباينة، واقتضت حكمته السامية أن يتعبد لهم بما يليق بشئونهم المتغيرة، ويتناسب هو وعقولهم وميولهم المختلفة، فتكون عباداتهم وشرائعهم، على قدر استعدادهم وطبائعهم، وذلك أبقى للخرج، وأدعى للطاعة، قال تعالى :

(لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) .
سورة المائدة (٤٨)

(٤) تبين هذه الآية أن الدين الإسلامي جاء مصداقاً لما سبقه من الأديان، جامعاً لمحاسنها؛ فهو صفوة الأديان، ضم إليها ما يلائم تقدم العقول، وسنة التدرج في الرقي، وما يشمل مساعدة الدارين؛ لذلك اقتضت حكمة الله أن ينجم به الأديان، فارتضاء الجميع الأمم في كل مكان وزمان .

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)^(١) ، (وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ^(٢) وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *) .

(٥) يفهم من هذه الآية أن الله تعالى قد ميز بعض الأنبياء بنوع خاص من الوحي: كالتكليم الذي امتاز به سيدنا موسى عليه السلام، وهو منتهى مراتب الوحي، ولئن كلم موسى ربه فوق جبل الطور لقد كلمه محمد صلى الله عليه وسلم فوق السموات السبع ليلة المعراج، وقد فضل الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء، فنهجه فوق ما منحهم من ضروب وحي، وأنواع معجزات، وعظيم صفات، ورضى الله عن البوصيري إذ قال :

فَاقِ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقِي وَوُحْيِي * وَلَمْ يُدَاوِرْهُ فِي عِلْمِي وَلَا كَرَمِي
وَكُلُّهُمْ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ يُنْمَسُ * غَرَّةٌ مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّمِ

(٦) ذكر الله تعالى في هذه الآية وظيفة الرسل عليهم السلام : وهي هداية الخلق إلى طريق الحق ، مع تبشير الطائمين بالواب ، وإنذار المخالفين بالعقاب . كما ذكر حكمة إرسالهم . وهي قطع كل عذر في مخالفة ، وإسقاط كل حجة في عصيان ؛ وذلك لأن العتول البشرية قاصرة عن الاستقلال بإدراك كل ما يسعدها في الدنيا والآخرة ، وقد يخلط على الكثير ما يسعدهم بما يشقىهم ؛ فيسلكون سبيل الشقاوة ظنين أنهم في سبيل السعادة سائرون : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ (١) فلوترك الناس على ذلك لفضول المحبة ، وقامت لهم المحجة . ولذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتُمْ مُبْدِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٢) ، وقال عظمت حكمته : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُعْزَى ﴾ (٣) والله سبحانه وتعالى أعلم .



(٢) قال الله تعالى :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّحْ لِمُ الْيَاسِرِ أَحْسَنُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ * وَإِنْ طَائِفَتٌ مِّنَ الْيَاسِرِ

(٢) سورة الإسراء (١٥) .

(١) سورة الإسراء (١١) .

(٣) سورة طه (١٢٤) .

يَعْنِي مَاعُوقَتُمْ بِهِ، وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَمَوْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ .
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ
هُمْ أَحْسَنُونَ *) .
سورة النمل (١٢٥-١٢٨)

المفردات

سبيل ربك : الإسلام .

الحكمة : الحجة الموضحة للفق القاطعة للشك والشبهة ، أو العلم النافع ،
أو القرآن الكريم .

الموعظة الحسنة : النصيحة التي يبدو فيها الإخلاص ، ويجهل منها حب النفع
لنصوح له ، وتمتدح فيها الرغبة بالهبة ، والإنذار بالبشارة .

جادلهم بالتي هي أحسن : ناقشهم بأحسن طرق المناقشة : وهي ما كانت
بالرفق واللين .

الصبر : مقاومة النفس الهوى واحتياؤها عن اللذات القبيحة .

الشرح

(١) أمر الله - عز وجل - نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - أن يتخذ
شمار دعوته أمورا ثلاثة : الحجة القاطعة ، والعظة الساطعة ، والمناقشة بالرفق
واللين .

وذلك لأن الناس إزاء الدعوة ثلاث طبقات ، لكل طبقة ضرب من الدعوة
يلائمه :

فالطبقة الأولى طبقة الخاصة : وهم العقلاء ذوو الدراية والبحث عن الحقيقة . وأمثل طريقة لهؤلاء الحجج القوية التي تجلّي الحق؛ وتكشف القناع عن وجه الصدق، وتقطع السبيل على الباطل، ولا تدع مجالاً للريب والشبهة، وذلك أمر يحتاج إلى عقول كبيرة، وعلوم غزيرة، والقرآن في ذلك بحر خضم، وينبوع فياض، ومعين لا يتنضب، فهو مليء بالأدلة العقلية، والبراهين العلمية، والأفيسة المنطقية . وليس شيء أبلغ من ذلك في التأثير على هذه الطبقة؛ فإنها إذا تجلب لها الحقيقة التي تتطلبها انشرفت لها صدورها، وبشت قلوبها، وأسرت إلى التصديق بها .

الطبقة الثانية طبقة العامة : وهي طبقة المتوسطين : الذين لم يرقوا إلى منازل العلماء العارفين، ولم يتزلوا إلى درك المشاغبين والمعاندين . وهؤلاء لسلامة ضمائرهم، ونقاء سرائرهم في حاجة العظات البالغة، والعبر النافعة، المحلاة بالإخلاص الظاهر، والمسوقة في أسلوب يمتزج فيه الوعد بالوعيد، والتبشير بالتحذير . فهم ليسوا في حاجة إلى حجج قوية، وبراهين علمية أو منطقية، بل يؤثر فيهم ما يبدو لهم من إخلاص الناصح، وما يلوح في ثنايا نصيحته من إشارة تشرح الصدر، وتقوى العزم، وتغرس الأمل، وتبعث على العمل، وما يترأى خلال كلامه : من وعيد يردعهم عن العصيان، ويحذرهم عاقبة الطغيان .

الطبقة الثالثة طبقة المعاندين : وهؤلاء شذاذ الطبقتين السابقتين : فيهم من العلماء، وفيهم من الدماء؛ فهم في حاجة إلى الجملة الواضحة والعظة الخالصة

في رفق ولين، ولا بد من صبر وجلد؛ حتى تسمع حججهم، وتاقش أدلتهم بأسر الوجوه، وأشهر الحجج. وتلك هي المجادلة الحسنى التي تتحد شغبيهم، وتطفئ لهيبهم وتجذب قلوبهم. وللين والرفق في ذلك جميل الأثر، أما الغلظة والشدة فيزيديانهم إصراراً، ويعصيان على لهمهم نأراً :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) .
آل عمران (١٥٩)

(٢) في هذه الآية يخبر الله نبيه بأن الواجب عليه تبليغُ رسالته مع إقامة الحججة، وإسداء النصيحة، والتدبر بالرفق واللين في المجادلة، وليس واجبا عليه أن يهتدوا إلى طريق الله القويم؛ فإن ذلك ليس في مقدوره، وقد علم الله أن منهم من لا يخضع للحجة مهما قويت، ولا تؤثر فيه العظة مهما حسنت، ولا يزيده الرفق واللين في الجدل إلا تمسكا بما هو فيه من ضلال. وهؤلاء هم الذين ختم الله على قلوبهم، وأعمى أبصارهم، وخسروا الدنيا والآخرة. ومنهم من يخضع للحجة، وتؤثر فيه العظة، ويجذبه النصيح، ويأسره اللين والرفق، فيعدل عن النى إلى الرشد، ويسلك سبيل الحق، وأولئك هم المهتدون .

(٣) يوم غزوة أحد، وإثرائتها ذهب صلى الله عليه وسلم يلتمس عمه حمزة، فوجده ببطن الوادى قد يُقربطنه عن كبده، ومثل به : بَقْدَعِ أَنْفَهُ وَأَذَاهُ، فنظر صلى الله عليه وسلم إلى شيء لم ينظر إلى أوجع منه لقلبه، فقال: «رحمة الله عليك! لقد كنت فعولاً للخير، وصوبلاً للرحم! أما والله لأمتن بسبعين منهم مكانك» فترل عليه قوله تعالى :

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَمَا قَبُولُوا يُحْمِلْ مَا عُوِقِبْتُمْ بِهِ) إلى آخر السورة ، فصبر وكفر
عن يمينه ، وأمسك عما أراد .

والمعنى : إذا نالكم أى أذى من عدوكم فقابلوه بالمثل ، ولا تزيدوا عليه ،
والصبر خير لكم من الانتقام .

(٤) ترشد هذه الآية إلى أن الدعوة الإسلامية التى قامت لنشر العدل ، ومحى
الظلم ، ومحاربة العادات القبيحة — لا ينبغي لها أن تزايل ما قامت له ، فلا تتجاوز
حدود العدالة ولا تقترب قبيح العادات ، حتى مع الظالمين ؛ فإن من يعيب شيئاً ،
ويفض منه يحمل به أن يتزه عنه ، وإن كان لابد من الانتقام فلا يبدؤا المثل ،
بل الأمثل أن يقابل العدوان ، بالصبر والنفرا ؛ فإن ذلك يجذب القلوب ، ويؤثر
فى النفوس ، فتكف عن العناد ، وتميل إلى الرشاد ، وذلك هو المقصد السامى للدعوة .

(٥) لما بين سبحانه وتعالى جواز الانتقام بالمثل ، وأن فى الصبح كبير فضل
كلف نبيه صلى الله عليه وسلم ذلك قائلاً : (وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ) ؛ فإن
النبي صلى الله عليه وسلم بلحالة قدره ، وعظم مكانته ، وزيادة علمه بالله تعالى ،
وفور وثوقه به — جدير به ألا يتخذ إلا الخطوة المثل ؛ ليكون خير قدوة ،
وأعظم أسوة .

ولما كلفه الصبر أوضح له أنه لا يستطيع القيام به ، إلا بمعونة ربه ، وفى ذلك
إشارة إلى أن طاعة الله تعالى لا تكون إلا بمعونه وتوفيقه ، نسأله تعالى العون
والتوفيق إلى أقوم طريق .

(٦) لما أحرز النبي صلى الله عليه وسلم ما حل بالمؤمنين من قتل ومثلة ، وما يحدث من المشركين من الطغيان ومحاربة الإيمان ، وتدمير المكاييد — ربه الله نفسه ، وطيب خاطره ، واعدأ إياه بمعونته ونصرته ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

وفي ذلك حث على اجتناب السيئات ، والقيام بالطاعات ؛ فإن من اتقى الله في أفعاله ، وأحسن في أعماله ، كان الله معه في كل أحواله ، ومن كان الله معه ، فالتوفيق اليه ، والنصر حقيقه .



(٣) قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ كُمْ رَبُّكُمْ بِنُفْثَةِ آلِيفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَوَّلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِيمٍ هَذَا يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلِيفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ . وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ .

سورة آل عمران (١٢٣ — ١٢٦)

(١) غزوة بدر :

(١) تشير هذه الآية الكريمة إلى الغزوة الكبرى التي وقعت ببدر ، إذ خرج النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان من السنة الثانية من الهجرة يطلب عيراً لقريش

(١) بدر : محل بين مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب : في جنوبها الغربي .

(٢) البير — بكسر الباء : الإبل تحمل الحليب ، ثم غلب على كل قافلة .

قادمة من الشام بتجارة، ومعه من المسلمين ثَلَاثُمِائَةٍ وتسعةَ عَشَرَ رجلاً، وثلاثةُ أفراس وسبعون بعيراً، وكان أبو سفيان مع العير، فلما علم بخروج النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى قريش من أخبرهم، فنهضوا ليدفعوا عن عيرهم، وكانوا نحو ألف رجل، معهم مائة فرس، وسبعمائة بعير، ولم يكن قصدُ النبي صلى الله عليه وسلم الفوز، ولم يكن بينه وبين المشركين ميعاد على ذلك .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَفَافٍ فِي الْمِيعَدِ وَلَٰكِنْ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ^(١) ﴾ .

(٢) الاستشارة :

لما علم صلى الله عليه وسلم بفترة قريش للذب عن متاجرهم استشار أصحابه في طلب العير (إبل التجارة)، أو النفير (الجيش الذي قدم للدفاع عن التجارة) فقال : (أيها الناس، إن الله قد وعدني إحدى الطائفتين أنها لكم : العير أو النفير)، فظهر أن بعضهم كان يريد العير ؛ لقلّة مددها وعدتها ، وكثرة مالها ، وعدم استعداد المسلمين للقتال .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَه ^(٢) تَكُونُ لَكُمْ ﴾ .

ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله، امض لما أمرك الله ؛ فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى :

(١) (فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ قَاتِلَا إِنَّا هُنَا قُلْعُنَّ *) .

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ؛ إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بشك بالحق
لو سرت بنا إلى برك الغماد لخالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له صلى الله
عليه وسلم خيراً ، ودعا له بخير .

ثم أراد صلى الله عليه وسلم أن يستوثق من الأنصار ، فقام أحدهم قائلاً :
« قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك
عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض — يا رسول الله — لما أردت ،
فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك . ما تخلف منا
رجل واحد ، وما نكره أن تلقى مدونا ؛ إنا نصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ،
ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله تعالى ، فسر عليه الصلاة
والسلام بقوله ، ونشطه ذلك ، ثم قال : سيروا على بركة الله وأبشروا ؛ فإن الله
قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم . (وعين
مصارعهم فما تعدوها) .

(٣) وسوسة الشيطان :

بعد الاستشارة ارتحل عليه الصلاة والسلام قريبا من بدر، ونزلت قريش بالعدوة
القصوى من الوادى ، ونزل المسلمون على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر
الدواب ، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر فأحرزوه ، وأصبح المسلمون محدثين ،

وأصابهم الظما، وهم لا يصلون إلى الماء . ووسوس الشيطان إلى بعضهم فقال :
تزعمون أنكم على الحق ، وفيكم نبي الله ، وأنكم أولياء الله ، وقد ظلمكم المشركون
على الماء وأنتم عطاش ، وتصلون محدثين ، وما ينتظر أعداؤكم إلا أن يقطع العطش
وقابكم ، ويذهب قواكم ، فيتحكوا فيكم كيف شاموا .

(٤) تثبيت الرحمن :

فأرسل الله عليهم مطراً سال منه الوادى ، فشرب المسامون واغتسلوا وتوضؤوا ،
وسقوا الركاب ، وملئوا الأسقية ، وأطلقا المطر الغبار ، ولبد الأرض حتى ثبتت عليها
الأقدام ، وزالت عنهم وسوسة الشيطان ، وطابت أنفسهم ، فذلك قوله تعالى :
(وَنَزَّلُ عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ ، وَيُذِيبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ
وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ *) .

(٥) الإمداد بالملائكة :

لما التقى الجمعان يوم بدر ، نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين ،
وهم ألف ، وأصحابه ثلثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم
القبلة ، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه : اللهم أنجزلى ما وعدتنى ، اللهم آت ما وعدتنى ،
اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبّد فى الأرض . فما زال يهتف
به ماداً يديه ، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر ، فأخذ
رداءه فآلفاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله ، كفالك مناشدتك
ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل :

(إِذْ تَسْتَفِيتُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْسِلِينَ *)

أى معينكم بألف من الملائكة متابعين : بعضهم فى إثر بعض . أمدهم بألف من الملائكة ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف مسومين : أى معلمين أنفسهم أو خيلهم .

روى أنهم كانوا فى صور الرجال على خيل بلى ، عليهم ثياب بيض ، وعلى رؤوسهم عمام بيض ، قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم .

(٦) النصر :

التقى الفريقان وقامت الحرب على ساقها ، وحى الوطيس ، ودارت الدائرة على قريش ، وكان يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان ، يوماً مشهوداً ، وفى تاريخ الإسلام معدوداً ، أعز الله التوحيد وزمرته ، وأذل الشرك وخرب محله ، مع قلة عدد المسلمين وعددهم ، وكثرة المشركين وسواغ حديدكم . نصر الله تعالى رسوله ، وأظهر وحيه وتنزيله ، وأنزى الشيطان وقيله ، فانهزم الكفار ، وولوا الأذبار ، تاركين وراهم سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً ، وزاد الإسلام ظهوراً ، وامتلاءً المسلمون إيماناً وسروراً ، ولهذا قال تعالى ممثلاً على عباده المؤمنين ، وحزبه المتقين :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَثَلَةٌ)

أى قليل عددكم وعدتكم تعلموا أن النصر إنا هو من عند الله ، لا بكثرة العدد والعدد ، وما كان الإمداد بالملائكة لإحراز النصر ، بل جعله الله بشارة وتطميناً لقلوب المؤمنين ، وتسكيناً لخوفهم .

ولذلك قال تعالى : (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ .
وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ *) .



(٤) قال الله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي
ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا . وَمَنْ
كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا
الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ *) .

سورة النور (٥٦، ٥٥)

المفسردات

ليستخلفنهم : ليجعلنهم خلفاء وملوكًا . ليتمكنن : ليثبتن وليقوين .
كفر : ارتد عن الإسلام أو لم يفهم شكر النعمة .
الفاسقون : الخارجون عن طاعة الله .

الشرح

(١) كان الساميون قبل الحجرة و ضعف ظاهراً ، واضطهاد وافر ، وذعر
مستمر ، ثم هاجروا إلى المدينة ، فكانت حياتهم حياة جلال وكفاح ، يصبحون
ويمسون مدحجين و السلاح ، حتى قال قائلهم : « ما يأتي علينا يوم نأمن فيه » .
فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تعبرون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم
في الملاء العظيم محتباً ليس معه حديد » ، وهذه بشري بالقوة والعظمة والأمن ،
فأكدت بوعده الله تعالى الذي نزلت به الآية الكريمة .

(٢) قال الله تعالى بعد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ومن هذا حظهم من أتمته بأنه سيقلم بضعفهم قوة ، وبخوفهم أمتة ، ويثبت لهم الدين الإسلامي الذي ارتضاه لهم ، ويرفع شأنه وشأنهم ؛ جزاء توحيدهم ، وصبرهم على اضطهادهم ، واتحادهم على نصرة رسولهم ، وتأزرهم على إعلاء كلمة الله .

وقد أنجز الله وعده ونصر الإسلام على الكفر ، وأورثهم الأرض ، وجعلهم خلفاء ، وكما فعل بنى إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبارة - أظهر المسلمين على جزيرة العرب ، وافتتحوا أبعاد بلاد المشرق والمغرب ، وتلوا عرش القياصرة ، ومنقوا ملك الأكاسرة ، وملكوا خزائنهم ، وصاروا ملوك العالم ، وسادة الدنيا .

(٣) في هذه الآية دليل على صحة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لما فيها من الإخبار بأمور مستقبلية وقعت كما أخبر بها .

(٤) وقد بقي المسلمون على قوتهم ، وأمتهم ، وعلو مكانتهم ؛ وتنام سيادتهم ، وعظيم هيبتهم - ما كانوا على صدق إيمانهم ، وصالح أعمالهم ، واتباع سنة رسولهم ، وتمسكهم بأداب دينهم . فلما ضعف إيمانهم ، وفسدت أعمالهم ، وطرحوا آداب دينهم ، وحادوا عن سنة رسولهم ، ولم يقتدوا بصالحى أسلافهم - تفزقت كلمتهم ، واضمحلت قوتهم ، وذهبت أمتهم ، وفقدت سيادتهم ، وضاعت هيبتهم ، وحرموا ما ابتدأت به الآية من جميل الوعد ، وحق طليم ما ختمت به من وعيد :

(وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) .

ولعلك فهمت ما تطوى عليه الآية الكريمة من أساس القوة، والغلبة، والعظمة والسيادة، وذلك الأساس هو الإيمان الصادق، والعمل الصالح. وفق الله الأمة إلى ما فيه سعادتها.

(هـ) وما امتازت به هذه الآية أنها سُبِّحَت بالأمر بطاعة الله ورسوله، وبيان أن هذه الطاعة سبب للهداية إلى ما فيه الفوز في الدارين :

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا. وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ *﴾

ثم أتت بآية أخرى تدعو إلى طاعة الله : بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول في كل ما يأمر به رجاء رحمة الله تعالى؛ فإن طاعته تستجلب رحمته :

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *﴾

فطاعة الله ورسوله سبب في الهداية، والرحمة، والقوة، والأمنة، والسيادة، والعظمة، وفي ذلك سعادة الدنيا والآخرة.

وإن تعجب فعجب لقوم هذا دينهم، وتلك شريعتهم، يهملونها ويتهافون على العقائد الفاسدة، والمظاهر الزائفة، حتى اشتبهت عليهم الرذيلة بالفضيلة، والفضيلة بالرذيلة، وضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(هـ) قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ. وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِيسِهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ، إِنَّهُ كَانَ مُتَجَبِّرًا *﴾

وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ . وَوَفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْمِيقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * (سورة الاسراء - ٣٢ — ٣٨)

المفردات

لويله : لمن يتولى أمره بعد وفاته وهو الوارث .
سلطانًا : تسلطًا وسيطرة : تحكُّمًا على القائل .
فلا يسرف : لا يتجاوز الحد . أشده : تمام قوته العقلية والجسمية .
العهد : أوامر الله تعالى ونواهيها ، ويشمل عهد الناس على ما ليس بمنوع شرعا .
القسطاس : الميزان . المستقيم : المعتدل . تأويلا : طاقبة :
لا تقف : لا تتبع .
مرحا : اختيالا وعجبا بالنفس . تخرق الأرض : تنقبها إلى الجهة الأخرى
لن تبلغ الجبال طولا : لن تساويها في الطول . سيئه : قبيحه المنهى عنه .

الشرح

احتوت هذه الآيات الكريمة عدة أمور : بعضها منهي عنه ، وبعضها مأمور به :

(١) جريمة القتل :

(وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوِيلَهُ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مُنْصُورًا *) .

إن جريمة لزهاق الروح جريمة وحشية، تدل على أن مقرنهما تجزء من خلال الخير، بل تجزء من صفات الإنسانية، وانحط إلى درجة الحيوانية، وإذا قُست تلك الفعلة في قوم فارقتهم الرحمة، وشملتهم القسوة، وفقدوا الطمأنينة، وهجرتهم الثقة، وانقطعت بينهم العلاقات، واضطربت أحوالهم، وأسرع إليهم الخراب والقضاء، فإن مرتكب هذا الوزر يهلك حرمة الدماء، ويسن للناس سنة شنعاء، ويحرمهم على جريمة نكراء :

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ نَبِيِّ إِسْرَآءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا يَغْيِرْ نَفْسَ أَوْفَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) .

فكان خليقاً بمقت الله وشديد عقابه، قال تعالى :

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) * .

ولافرق بين أن يكون المؤمن حراً أو عبداً، رجلاً أو امرأة، وحكم الذمي حكم

المؤمن في حرمة القتل ووجوب القصاص .

وأما من أحياناً نفساً بعفو، أو منع قتل، أو إنقاذ من هلكة — فقد برهن على العواطف النبيلة، وتأمل الفضيلة، واستحق رضا ربه، وجزيل ثوابه؛ لأنه سن سنة جميلة، وكان قدوة في الرحمة، وأسدى إلى الإنسانية أعظم مكرمة، وسد باب الشر سداً منيعاً : (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) .

(٢) سورة النساء. (٩٣).

(١) سورة المائدة (٣٢).

(٣) سورة المائدة (٣٢).

والحق الذى يبيع إراقة الدماء : كُفِّرَ بعد إيمان ، أو زنى بعد إحصان ، أو قُتِلَ مؤمن معصوم عمداً . ومن قُتِلَ بنير هذا فهو مظلوم ، لقريبه الوارث الحق فى المطالبة بدمه من غير تجاوز للحد المشروع فى ذلك ؛ فلا يمثل بالقاتل ، ولا يقتل غيره ، ولا يقتل اثنين فى واحد ؛ فإن الله تعالى قد نصره ؛ حيث أوجب له القصاص ، وأمر الحاكم بمعونته ، وهو الذى يتولى القيام به ، وحسبه ذلك ؛ أما الإسراف فإنه عادة جاهلية ممقوتة : تجزى إلى توالى إراقة الدماء ، وتبطل حكمة القصاص .

(٢) كفالة اليتيم :

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) .

رعاية اليتيم ، والقيام على أموره عمل تدعو إليه المروءة ، وتستوجبه الشفقة والرحمة ، ويفرضه الدين ، قال تعالى :

(وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ) . الآية :

وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » [وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما كناية عن قرب منزلته من النبى صلى الله عليه وسلم فى الآخرة] .
ورعاية اليتيم تقضى المحافظة على نفسه وماله :

فالمحافظة على نفسه : تربيته تربية صحيحة حتى ينمو عقله وجسمه ، واجتناب إيذائه حساً ومعنى ؛ فإن فى سوء معاملته بعداً من الخلق الكريم ، ونروجاً عن الدين القويم :
(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ^(١) ^(٢)) .

(١) يدفعه دفعا عنيفا بمقفوة وأخى . (٢) أول سورة الماعون .

والمحافظة على أمواله : عدم مسنها والدنو منها إلا بأحسن الطرق وأنفعها ؛
فلا يعطيها لليتيم قبل أن يبلغ رشده ، بل يحفظها عنده ، وينفق عليه منها :

(وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ
وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا *)^(١)

ويشير قوله تعالى : (وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ) إلى أن الولي يجب عليه
أن ينبي مال اليتيم بتجارة أو زراعة أو غيرها من الوجوه المشروعة ؛ لأنها لا تنق
موردًا للرزق والكسوة إلا إذا استغلت وثمرت .

و يحرم على الولي أن يتناول من مال اليتيم شيئاً لنفسه إلا إذا كان فقيراً فياً كل
بالمعروف : بلا إسراف ولا ادخار لنفسه ، ولا وقاية لماله . قال تعالى :

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِسْرَافًا وَيَدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا . وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ
كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ *)^(٢)

وقد حذر الله تعالى الأوصياء استعمال القسوة مع اليتامى ، أو إيذائهم في أموالهم ،
مذكراً لإياهم بأولادهم الذين يتركونهم بعد وفاتهم ؛ حتى يعملوا معهم ما يحبون أن
يصنع بأولادهم من بعدهم : من الشفقة ، والرفق ، وحسن الأدب ، وصيانة الأموال
والعمل على إيمانها . قال تعالى :

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ
وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا *)^(٣)

وروى عن أبي بردة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « يبعث الله قوما من قبورهم نتائج أنواهم نارا » ، فقيل من هم ؟ فقال : ألم تر أن الله يقول : **(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ سَعِيرًا *)** .

وإذا آنس الوصى أن اليتيم قد بلغ رشده ، وظهر له تمام نموه العقلي والجسمي : بصلاح دينه وأحواله ، والقصدرة على حسن التصرف في أمواله - دفعها إليه ، وأشهد عليه ؛ نفيا للتهمة ، وبدا من الخصومة .

(٣) الوفاء بالعهد : **(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا *)** .

هو غرس الأمانة ، وثمرة الصدق والإخلاص ، ومظهر الشهامة والمروءة ، وصفة النفوس الشريفة ، وعنوان الهمم العالية ، وباعث الثقة والاحترام ، ودعامة حسن المعاملة ، وأساس رقى الأمم ، وسبيل سعادتها .

لذلك يفرض عليك الشرف أن تفكر مليا ، وتروى طويلا قبل أن تعقد وعدا ، أو تلتزم عهدا ؛ فإن من تعدى يرب عليه أموره ، وينظم أعماله وأوقاته ، خلف الوعد إفساد لهذا الترتيب قد ينشأ عنه فوات مصالح ذات قيمة ، أو وقوع خسارة جسيمة ، أو ضياع فرصة لا يمكن تداركها ؛ ولذلك تشعر من نفسك بامتناع ، وفي صدرك بانقباض ، حينما يخلف وعدك صديقك أو عميلك ؛ إذ ترى في ذلك تعطيلًا لأعمالك ، وإهدارا لأوقاتك ، بل ازدراء لذاتك .

ولاشك أن خلف الوعد غدر يفسد النظام ، ويذهب الهيبة والاحترام ، ويضيع الثقة بين الأقوام ، ويفصم عرى التعاون والائتمان ، ويعجل الله به الانتقام .

لذلك أمر الله بالوفاء بالعهد : قال تعالى :

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا *) .

يُسأل صاحبه يوم القيامة ؛ فلم يوفى الثواب ، وعلى المخلف العقاب ، وقال تعالى :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) ^(١) وقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا ^(٢) بِالْعُقُودِ *) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِيَ خَانَ » وزاد في رواية أخرى : « وَإِنْ صَامَ صَلَّى وَزَمَّمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ » .

وقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مثلاً كاملاً في الوفاء بالوعد ؛ فقد روى عن عبد الله بن أبي الجماء — رضى الله عنه — أنه قال :

« بَايَعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبِيعُ قَبْلَ أَنْ يَبِيعَ ، وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ ، فَوَعَدَنِي أَنْ آتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ ، فَتَبَيَّنْتُ ، ثُمَّ دَكَّرْتُ بَعْدَ ثَلَاثٍ ، فَبَقِيتُ فَإِذَا هُوَ فِي مَكَانِهِ ، فَقَالَ : يَا فَنِي ، لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ ، أَنَا هَاهُنَا مِنْذُ ثَلَاثٍ أَنْتَ تَطْرُقُكَ » .

فالنبي صلى الله عليه وسلم انتظر ثلاث ليال ، لا لبقية الثمن ، بل للوفاء بالوعد الذى كان أحرص عليه من كل شيء .

وقد كانت حياته صلى الله عليه وسلم بعد البعثة دروساً عملية ، ومظاهر جليلة ، لهذه الخلة السامية ، ولجميع أخواتها من صفات النبيل ، وقد رَبي أصحابه على ذلك فكانوا نموذجاً صالحاً ، وقُدوة طيبة :

' روى عن جابر - رضى الله عنه - قال : قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا ، فلم يجمع مال البحرين حتى قبض النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر رضى الله عنه فنأدى : من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة أو دين فليأتنا ، فأتته وقلت له : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لى كذا وكذا ، فأتى لى حشية ، فعدتها فإذا هى خمسمائة ، فقال لى : خذ مثلها .

ولما أتى عمر بن الخطاب بالهرمزان أسيراً دعاه إلى الإسلام ، فأبى ، فأمر بقتله ، فلما عرض عليه السيف قال : لو أمرت يا أمير المؤمنين بشربة من ماء فهو خير من قتلى على الظلما ، فأمر له بها ، فلما صار الإناء فى يده قال : أنا آمن حتى أشرب ؟ قال : نعم ، فألقى الإناء من يده ، وقال : يا أمير المؤمنين ، الوفاء نور أبلج ، قال : لك التوقف حتى أنظر فى أمرك ، فلما رفع عنه السيف قال : الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فقال له عمر : ويحك ! أسلمت خير إسلام فأنرك ؟ قال : خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال : إن إسلامى إنما كان جزءاً من الموت ، فقال عمر : إن لفارس حلوماً ، بها استحققت ما كانت فيه من الملك .

وسئل الإمام مالك رضى الله عنه عن الإشارة بالأمان : أهى بمنزلة الكلام ؟ فقال : نعم ، إنى أرى أن يتقدم إلى الجيوش ألا يقتلوا أحداً أشاروا إليه بالأمان ؛ لأن الإشارة عندى بمنزلة الكلام ، وإنه بلغنى أن عبد الله بن عباس قال : ما ختر قوم بالعهد إلا سلب الله عليهم المدو .

(٤) وفاء الكيل والميزان : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * ﴾ .

وفاء الكيل والميزان خيرٌ عظيم : مصدره الصدق والأمانة ، ومبعثه خوف الله تعالى ومراقبته ، وثمرته حسن العاقبة في الدنيا والآخرة : ففي الدنيا طيب الثناء ، وكثرة الحرفاء ، وسعة الثراء ، وحسن الاقتداء ؛ فيعم الرخاء ، ويخفى الشقاء . وفي الآخرة حسن الجزاء ، والنعيم الذي لا يعتريه فناء ؛ فصاحبه يحشر مع النبيين والصدّيقين والشهداء .

وأما التطفيف فشروبيء ، وخلق جدّ رديء ، وأكل لأموال الناس بالباطل ، فهو مظهر الخيانة وعدّ مراقبة الله ، وغفلة عن يوم الجزاء العظيم : يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وتنفى التطفيف فراق للأمانة ، وهجر للصدق ، وحرمان من الثقة ، واستحقاق لعقوبة الله ، واستعجال لنقمته ، قال تعالى :

﴿ وَيَلْ لَّطُفَّيْنِ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ^(١) * ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم لأصحاب المكيال والميزان :
« إِنَّكُمْ قَدْ وُلِّيتُمْ أَمْرَيْنِ هَلَكَتَ فِيهِمَا الْأُمَمُ السَّابِقَةُ قَبْلَكُمْ » .

فهو يحذرهم التطييف وإلا حل بهم من العقاب الشديد ما حل بسائقيهم ؛
ولذلك كان السلف الصالح يخشى الإقامة بين المطففين ، ويوصى بهجر بلادهم :
قال سعيد بن المسيب رضى الله عنه : « إذا جئت أرضاً يوفون المكيال والميزان
فأطل المقام بها ، وإذا جئت أرضاً ينقصون المكيال والميزان فأقلل المقام بها » .

(٥) (وَلَا تَقُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا *) .

(١) لا تبتغ شيئا لا علم لك به ، سواء أكان مسموعاً أم مبصراً أم معتقداً ؛
فلا تخبر بأنك سمعت وأنت لم تسمع ، أو أبصرت وأنت لم تبصر ؛ فإن فى ذلك
كذبا صريحا .

قال صلى الله عليه وسلم : « إياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهذى إلى الفجور ،
وإن الفجور يهذى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى
يكتب عند الله كذابا » .

وقال : « كبرت خيانه أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له
به كاذب » ، وقال أيضا : « إن أفرى الفرى أن يرى الرجل عينه ما لم تريا » .
ومعناه أكذب الكذب وأقبحه أن يقول : رأيت « فيما لم يره » .

وقال تعالى : (إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ
هُمْ الْمُكْذِبُونَ ^(١) *) .

وقد يكونُ في الكذب إفسادٌ بين الناس؛ فيكونُ نعمة ووقية، وفي ذلك فُصْمٌ لُمرِّ الاتحاد، وقطعٌ للروابط الاجتماعية، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة نمام » . وقال تعالى :

(وَلَا يُطِيعُ كُلُّ حَلَافٍ مِثْلَهُ * هَٰذَا مِثْلُ مَا يَصِفُونَ * مَنَاجٍ لِّتَحْيِيَهُمْ مِّنْهُ *) (١) (٢) (٣)

وإن كان في ذلك الكذب ذِكْرٌ أَخَاكَ بما يكره — فهو بهتان : أى باطل، وفيه غرس للأحقاد والضغائن ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إن من أكبر الكجائر استعطالة المرء في عرض رجل مسلم بغير حق » .

وقد يكون الكذب أمام الحاكم فهو شهادة زور : تفضى إلى الحكم على البريء، وإفلات المجرم من القصاص، وضياع الحقوق، وتفضيل الحاكم، وتشجيع الظالم، وتكثير الجرائم، قال الله تعالى : (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ *) (٤) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكجائر؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين (وكان متكئاً فجلس) فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

وكما لا يليق بشرفك أن تقول سمعت وأنت لم تسمع ، أو أبصرت وأنت لم تبصر كذلك لا يليق بك — وقد وهب الله لك العقل — أن تكون لك عقيدة في شيء ما دون دليل ساطع، وعلم قاطع؛ فإن الظن لا يفي من الحق شيئاً، وبعض

(١) كثير الخلف . (٢) حخير . (٣) عجايب طمان متتاب .

(٤) سورة القلم (١٠-١٢) . (٥) سورة الحج (٣٠) .

الظن إثم، والدين الذى جاء لإنهاض العقل من حضيض الجحود والتقليد، لا يقبل منه عقيدة إلا بالبرهان السديد .

(ب) يصح أن يراد بقوله تعالى : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) لا تتبع مالا يمينك؛ فيحرم على المرء أن يتبع بسمعه وبصره عورات الناس ؛ فان ذلك تجسس نهى الله تعالى عنه بقوله : (وَلَا تَجَسَّسُوا)^(١) . وصعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع : « يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفِضْ الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ، ولا تُغيروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ؛ ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله » ، وقال : « إنك إن تتبع عورات الناس أفستهم ، أو كدت أن تفسدهم » ؛ لأن مجاهرته بما يسمع منهم ربما تؤذيهم إلى المجاهرة بالمعاصي ، والاستراادة منها .

كذلك لا يحل للرجل أن يُصغى إلى مفتاب ، فإن فعل كان شريكا له فى إثم الغيبة ؛ فإن المستمع شريك القائل ، قال تعالى فى وصف عباده الذين يخفون عنهم :

(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا *)^(٢)

وقال فى وصف المؤمنين المفلحين :

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ *)^(٣)

ويحرم عليه أيضا أن ينظر إلى أجنبية ، كما يحرم على المرأة أن تنظر إلى أجنبي لغير حاجة شرعية ، قال الله تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) ، وقال تعالى : (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ)^(٤) .

(١) سورة الجرات (١٢) . (٢) سورة الفرقان (٧٢) . (٣) سورة المؤمنون (٣) .

ويحرم التفكير المصحوب بالعزيمة المؤكدة فيما لا يحل لك التفكير فيه ؛ كتكفرك
 في ضرر نفسك أو غيرك أو وطنك أو دينك ، أو في معصية من معاصي ربك .
 والتفكير الذى ليس مصحوباً بالعزيمة المؤكدة على تنفيذ الفكرة ليس بحرام ،
 بل هو حديث النفس المعفوع عنه .

فالسمع والبصر والقلب من نعم الله الجليلة التى يجب استعمالها فيما خلقت له ،
 ولا ينبغي أن تسخر فى معاصي الله المذكورة ؛ فإنها جرائم هادمة لبيان الاجتماع ، مؤثرة
 للأحقاد والضغائن ، فاصمة لئرا الاتحاد والتعاون ، جالبة لسخط الله تعالى وعقابه .
 وسيسأل كل إنسان يوم القيامة عن سمعه فيما استخدمه ، وعن بصره فيما أجاله ،
 وعن فؤاده فيما استعمله .

(٦) النهى عن الكبر : (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ
 وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا *) .

قد تَخْدَعُ بعض الناس قسسه ، فتوهمه أنه على مزايا فوق مستوى غيره ،
 وأن له من الفضائل ما جعله فريد عصره ، ومن المحاسن ما صيره وحيد دهره ؛
 فهو فيما وُهِبَ من خلال ، لم يُنْسَجْ له على منوال ، ولم تَسْمَحْ المقادير له بمشال ،
 فيشمخ بأنفه كأنما يطاول الجبال ، ويرفع رأسه إلى السماء كأنه يطلبها ، ويدق الأرض
 بقدميه كأنه يتقها ؛ غرضه بذلك كله أن يشار إليه بالبنان ، بأنه أعظم إنسان .
 ويرشدنا الله فى هذه الآية الكريمة إلى أمرين مُرِينٍ يُجْزَعُ المتكبر

مرارتها :

(١) طلب المتعة عند الناس بتعاطفه عليهم ، وبذلك قد طلب ما لا يناله ولا يمكنه دركه ؛ لأنه أخطأ الوسيلة ، وحرّم التواضع وهو خير فضيلة . ومثله في خيبة الامال مثل من يحاول أن يتقّب الأرض ، أو يارى بطوله الجبال .

(ب) إن تعاطفه على الناس ينفرهم منه ، ويحقدّم عليه ، ويحقّره في نظرهم ، فيهزّعون به ، ويسخرون منه ، كما هزأ به الله تعالى في هذه الآية بأسلوب بديع في السخرية ؛ فتعاطفه أثمر له المهانة عند الله والناس ، فأمله معكوس ، وطالعه منحوس ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * ١١ ١٢ ﴾

وقال تعالى : تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ ظُلُومًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * ١٣ ﴾

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر » فقال رجل ، يا رسول الله : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة . قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس .
بطر الحق : دفعه وورده على قائله ، وغمط الناس : احتقارهم .

(٧) ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ :

(١) ولا تله كبرا . (٢) سورة لقمان (١٨) .

(٣) سورة القصص (٨٣) .

بعض الخصال المذكورة في هذه الآيات حسن مأمور به فهو مرضى عند الله تعالى ، ويكون فاعله مرضيا عنه ، وبعضها قبيح منهى عنه والله تعالى يفيضه ، ويفيض من فعله ، ويقابله على ذلك . وفقنا الله لما يرضيه .



(٦) قال الله تعالى : (نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنْشِئَ فِي مَالَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ وَأَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مَّا فَظَلَمُ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَنْتُمْ أَتْرَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَازِنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَنَمَثَلًا لِلْمُؤْمِنِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ *) .
سورة الواقعة (٦٠ — ٧٤)

المفردات

قدرنا بينكم الموت : قسمناه عليكم قسمة الأرزاق .

بمسبوقين : بمغلوبين . أمثالكم : ذواتكم ، أوصافكم .

ننشئكم : نخلقكم . تزرعونه : تبتونه وتقومونه .

حطًا : هشيًا : منكسرًا . فظلمتم : فصرتم .

تفكَّهُون : تعجبون ، تندمون .

مفرون : { مصابون بفرامة ما أفقناه أى بخسارته .
أو معذبون مهلكون بهلاك رزقنا، أو بالمعاصي .

محرومون : ممنوعون رزقنا بسوء حفظنا .

المزنب : السحاب : واحدة مُزْنَةٌ . أجاجاً : مرّاً شديد الملوحة لا يمكن شربه .

تُورون : توقدون وتُخْرِجُون من الشجر الأخضر .

تذكّرة : يُتَذَكَّرُ بها نار جهنم . متاعاً : متعة .

المقوى : المسافر، والفقير، والغنى .
للقوين : { ولذلك صح أن يراد بالمقوين : الناس أجمعون .

فسيح باسم ربك : فتره ربك عما لا يليق به .

الشرح

(١) بهذه الآيات الكريمة ردّ الله تعالى على من ينكرون البعث بأنه خلقنا ،

وجعل لحياة كل إنسان غاية لا تُتعدّاها ، وساعة معينة لا تتجاوزها .

كما إبان أنه لا يعجزه أحد ، ولا يغلبه غالب ، ولا يحول حائل بينه وبين أن

يخلقنا خلقاً آخر لا نعلمه : فيبطل ذواتنا ، أو يغير صفاتنا .

وقد برهن على ذلك — من أنفسنا ، وما لا بد منه لحياتنا — بما يقطع المجمة ،

وينير المحجة .

البرهان الأول :

بما لا مرأى فيه أن الله تعالى خَلَقَنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ، ومن قدر على فعل شيء كان

على إمادته أقدر ؛ إذ من اتّاب عند ذوى العقول أن الإعادة أهون من البداية ،

غير أنه سبحانه تستوى عنده في السهولة البدأة والإعادة ؛ لعظم قوته ، وتمام قدرته .

يشير إلى ذلك البرهان قوله تعالى :
 (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ *) .

البرهان الثاني :

نحن نحرق الأرض، ونبذر الحب، ونرجو الثمار من الرب، فهو الذى يتولى
 فضله وعنايته وقدرته إنباته وتسميته، حتى يرقى أكله فى حينه، ولو شاء بلعه
 مفتتاً متكسراً، بعد أن كان زاهراً ناضراً؛ فيصير أمرنا حينئذ بين تعجب
 من سوء حالته بعد غضارته، وتقدم على ضياع ما بذل فيه من جهد ونفقة، وأسف
 على ما ارتكبناه من آثام اقتضت هذا الانتقام .

ويتوزع حديثنا بين قولنا : إنا مصابون بغرامة نفقاتنا، وقولنا : إنا معذبون
 ومهلكون؛ لضياح أرزاقنا، وكثرة ذنوبنا، وقولنا : إنا ممنوعون من الرزق بسوء
 حفظنا وعدم بختنا .

وذلك البرهان قوله تعالى :

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ
 لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَلا تَفْكُهُونَ * إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا لَمُغْرِمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ *) .

البرهان الثالث :

الماء الذى نشره عذاباً فرائاً، كان بخاراً صعد بالحرارة من بحار : ماؤها
 أجاج، والله وحده الذى يستخلص العذب من الملح، ويرفع الأول إلى طبقات
 الجو العالية، وهنالك يتكاثف ويتراكم، فيكون المزن الذى يهطل منه المطر،

فإروينا وحيواننا ونبتاتنا . ولو شاء الله نضعد من البحار أجاجها فلا نستطيعه ، ولا تقوى على شربه ؛ لأنه يؤجج الفلة ، ويُلْهِبُ الظما .

أفلا يدل ذلك على تمام قدرته ، وجميل عنايته ، وعظيم رحمته ؟ وهلا يجب أن تقابل تلك المنة السامية بشكر جزيل ، وثناء جميل ، وطاعة تامة لذلك الرب الجليل !
تقرأ ذلك البرهان في قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * ﴾ .

البرهان الرابع :

النار من أزم الأشياء لنا ، وألصقها بنا في حياتنا ؛ فلا يستطيع إنسان أن يستغنى عنها : كبيراً كان أو صغيراً ، جليلاً أو حقيراً ، غنياً أو فقيراً ، حاضراً أو مسافراً . ولم يُنبت الشجر الذى تخرج منه النار إلا الله جلّت قدرته ، وقد جعلها لنا فى الدنيا مَذَكَّرَةً بنار الآخرة ؛ حتى لا نميل عن القصد ، ولا نقصر فى أداء فرض ، كما تخفّرها للناس يستدفئون بها ويستضيئون ، ولطعامهم يُنضجون .

ومن تدبر هذه البراهين تحقق تمام قدرة الله على البعث والنشور ، وتأكد ما لله من منن عظيمة على خلقه : يجب أن تقابل بتعظيمه ، وتزويه عن كل ما لا يليق بعظمته .
تقرأ ذلك فى قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ * ﴾ .



(٧) قال الله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا . وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ . مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيَنُفِثَ عَنْكُمْ رِجْسَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ * ﴾ .

سورة المائدة (٦)

المفردات

- إذا قمت إلى الصلاة : إذا أردتم القيام إليها .
- المرافق : جمع مرفق، وهو موصل الذراع في العضد .
- الكعبين : هما العظمان البارزان في جانبي كل رجل، عند مفصل الساق والقدم .
- فاطَّهَرُوا : فاغسلوا .
- الغائط : المنخفض الواسع من الأرض، وكانوا يقضون حاجتهم فيه، ثم أطلق على ما يخرج من الفضلات فعني : « جاء أحد منكم من الغائط » : قضى حاجته .
- صعيدًا طيبًا : ترابًا طاهرًا . حرج : ضيق .

الشرح

المُصَلِّي واقف بين يدي الله تعالى ومناجٍ له، فيلزمه أن يكون طاهرًا، ظاهرًا وباطنًا؛ لذلك يفرض على من يريد القيام إلى الصلاة أن يتوضأ : يغسل وجهه

ويديه إلى مرفقيه ، ويمسح رأسه ، أو بعضه ، ويفسل رجله إلى كعبه .
 ولا بد أن تسبق النية هذه الأعمال ، وعلم فرض النية من الحديث :
 (إنما الأعمال بالنيات) كما علم من الحديث أيضاً سنن الوضوء ومستحباته ونواقضه .
 ويكتفى بالوضوء إذا لم يكن المرء مُحَدَّثاً حدثاً أكبر ، وإلا وجب عليه إذا أراد
 الصلاة أن يفسل جسمه كله ، ولا يكفي الوضوء حينئذ .

ثم بين الله تعالى في الآية أن الإنسان إذا كان مريضاً ، وخشى باستعمال الماء
 الموت أو زيادة المرض ، أو كان مسافراً ، أو قضى حاجته ، أو لمس النساء ،
 ولم يجد ماء يتوضأ به — فإنه يتيمم بتراب طاهر : يمسح وجهه ويديه بالكيفية
 التي عرفتها سابقاً .

ففي هذه الآية الكريمة : بيان أنواع الطهارة الثلاثة : الوضوء ، والغسل ، والتيمم ،
 وقد أوضح الله لنا فيها أنه ما كلفنا ذلك إرادة التشديد والتضييق علينا ، بل إرادة
 تطهيرنا من الأدناس الظاهرة والباطنة : فالظاهرة هي الأوساخ العالقة بالجسم ،
 والباطنة هي الذنوب ؛ فقد ورد في الحديث الشريف أن الوضوء يكفر الله به
 الذنوب .

وبذلك يكون الله تعالى قد أتم نعمته علينا بالطهارتين : الظاهرة والباطنة ،
 وبالترخيص لنا بالتيمم حين فقد الماء ، أو عدم القدرة على استعماله ، وتلك نعمة
 عظيمة تستحق أن نشكرها لله بطاعته فيما أمرنا به ونهانا عنه .

الأحاديث النبوية الشريفة

(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَالْحَجُّ ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ ^(١) » .

لكل بناء دعائم لا يقوم إلا عليها ، وآساس لا يوجد إلا بها ، وفي هذا الحديث الشريف شبه النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام بالبناء ، وجعل أساسه الشهادتين ، وأداء الصلاة ، وإعطاء الزكاة ، وحج البيت الحرام ، وصوم شهر رمضان ، وكما لا يوجد البناء دون أساس لا يوجد الإسلام الكامل دون هذه الأمور الخمسة .

والغرض بيان شعائر الإسلام العظمى ، ومظاهره الكبرى ، التي يقوم عليها ، ولا يتم وجوده إلا بها ، ومزايا كل من هذه الدعائم الخمس يحتاج إلى إطالة ، لاتحملها هذه العجالة ، وقد مر بك بعضها في علاقة الإيمان بالسعادة ، فارجع إليها .

(٢) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا تَنَقَّى الْمُسْلِمَانِ نِسْفَتَيْمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا الْقَاتِلُ ، فَبِأَلِّ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ : إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ ^(٢) » .

المفردات

هذا القاتل : أى استحقاق القاتل للنار ظاهره ، لارتكابه جريمة القتل .

فما بال مقتول : ما حاله حتى استحق أن يكون في النار ؟

حريصا : شديد الرغبة والعزم على قتل صاحبه .

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى . (٢) رواه البخارى .

الشرح

رابطه الإيمان كرابطة الأهل والبيان؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» ، بل مثل النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم بالجدد؛ إذا مرض منه عضو تألم له سائر الجسد، فاعتراه الأرق وانتابته الحصى .

فترى من هذا أن رابطة الإيمان قوية جداً، لا يُقَدِّمُ على قطعها (بإيذاء المسلمين أو أحدهم) إلا مجرم أثم، مستحق لأشد أنواع العقاب .

فالمسلمان المتقاتلان يفصمان العروة الإسلامية، ويقطعان الصلة الدينية، ويُحِلَّانَ الحقد والجفاء، محل المحبة والصفاء، ويُفَرِّقان كلمة المسلمين، ويُضعفان شأن الإسلام؛ لذلك استحقا عقاب النار؛ أما القتاتل فلأنه ارتكب تلك الجريمة الشنيعة، وأما القتيل فقد كان ذا رغبة شديدة، وعزيمة أكيدة على قتل صاحبه .

غير أنهما لا يُخَلَّدَانِ في النار إلا إذا استحلا ذلك القتاتل . وإذا كان أحدهما مدافع عن نفسه أو عرضه أو ماله أو وطنه فلا إثم عليه، والباغى هو الآثم .



(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، يُحْسِبُ ابْنُ آدَمَ لِقِيَمَاتٍ يُقَمِّنُ صُلْبُهُ، فَإِنْ كَانَ لَا حَالَةَ فَأَعْلًا، فَثُلُثٌ لِعَلَمَائِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَّائِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفْسِهِ »^(٢) .

المفردات

يَحْتَسِبُ : كافي • يَقْمَنَ : يحفظن • صُلْبُهُ : ظهره، والمراد جميع الجسم .
لا محالة : لا بد •

الشرح

المعدة بيت الداء، والبطنة تأفن الفطنة ؛ فكثرة الطعام، تذهب النشاط ،
وتجلب السقام، وتضر العقول : تكدر صفاءها ، وتذهب ذكاءها .

لذلك جعل النبي صلى الله عليه وسلم امتلاء البطن خطراً على الجسم والعقل
يجب اتقاؤه ، وشراً كبيراً يجرّد بالعاقل اجتنابه، والاكتفاء باليسير الذى يحفظ
الحياة، ويقوى الجسم، ويرد إليه ما يذهب الكد، ويذهب الإجهاد، فإن دفعت
المرء رغبة شديدة إلى الزيادة على القدر الضرورى فليكن ذلك بحذر وحكمة ؛ بحيث
لا يتجاوز الطعام ثلث المعدة، ويبقى الثلثان : أحدهما للشراب، والآخر للنفس .
فالدين يدعو إلى الاعتدال فى الطعام ؛ محافظة على الصحة الجسمية والعقلية ؛
قال تعالى فى سورة الأعراف (٣١) :

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ *)



(٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا سَمِعْتُمُ الطَّاعُونَ بِأَرْضٍ
فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا » .^(١)

(١) تذهب • (٢) رواه الامام مالك والبخارى ومسلم والترمذى •

المفردات

الطاعون : قُروح تخرج في الجسد، مع ورم، وألم شديد، وخفقان في القلب وقىء، ويراد بالطاعون هنا كل مرض عام معد .

الشرح

إذا انتشر بإحدى الجهات مرض معد وجب على الخارجين عنها ألا يدخلوها ؛ حتى لا يعرضوا أنفسهم للتهلكة بانتقال جراثيم الوباء إليهم، كما يجب على أهل الجهة الموبوءة ألا يخرجوا؛ حتى لا يكونوا سبباً في تفشي الوباء بجهات أخرى .
وهذه حيلة صحية عظيمة، وتدير جليل الشأن، تقوم به الآن الحكومات الراقية حينما تحمل الأمراض ببعض جهاتها، حرصاً على الصحة العامة، ويسمى بالمجر الصحي .
ففي هذا الحديث أمر بالاحتياط والحزم، والاحتراز من المكروه، وبمجانبة أسباب الهلاك، كما أن فيه تسليماً لقضاء الله وقدره عند حلول الآفات .



(٥) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا قَلْبُهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَيْسِّرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرُّوحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّبْلَةِ ^(١) » .

المفردات

يسر : سهل، يشاد الدين : يغالبه : يكلف نفسه من العبادة فيه فوق طاقته .
سدّدوا وقاربوا : اقتصدوا واعتدلوا في الأمور كلها، وتركوا الغلو فيها والتقصير .
الغَدْوَةُ : سير أول النهار، والروحة : سير آخر النهار، والدَّبْلَةُ : سير آخر الليل .

(١) رماء البطارى .

الشرح

الدين الإسلامي سهل متين، يبنى العمل به في رفق وهوادة؛ فلا تكلف نفسك فوق طاقتها، وإلا وقعت في المَلَل والمَلَل؛ فتقطع عن العمل، دون نيل الأمل، ويكون مثلك مثل سَفِيرٍ^(١) أجهد أحدهم مطيته؛ ليصل إلى الغاية قبل إخوانه، فما كاد يفارقهم حتى ماتت مطيته من الجهد دون الغاية، فلا طَوَى مسافة طويلة، ولا وقى دابته من العطب.

قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمُتَبَتُّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبَقَى». والحكمة: التوسط في الأمور كلها، وترك الغلو والتقصير؛ فإن ذلك أصون للنفس من الإجهاد، وأقرب إلى نيل المراد؛ وقليل دائم خير من كثير منقطع، وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل.

بغدير بالعقل ألا يجانب الاعتدال في طاعته، ويستعين عليها بأوقات النشاط، وخلو القلب من مشغول العيش؛ حتى لا يسأم ولا يسقم، بل يستلذ العبادة، ويبلغ مراده. مثله في ذلك مثل المسافر الحاذق يسير في أوقات النشاط: أول النهار، وآخره، وآخر الليل، ويستريح هو ودابته في غيرها؛ فيصل إلى غايته، دون عناء.



(٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مَثْلِي وَمَثْلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ، فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِثَنِي، وَأَنَا النَّذِيرُ الْعَرِيَانُ، فَالنَّجَاءُ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْبَلُوا، وَأَنْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَفَجَّوْا، وَكَذَّبَتْ

طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاَحَهُمْ ، فَذَلِكَ
مَثَلٌ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ ، وَمَثَلٌ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ
مِنَ الْحَقِّ ^(١) .

المفردات

النذير العريان : من يُبعث ليتعرف أخبار العدو، يكون على مكان حال، فإذا
رأى العدو قد أقبل نزع ثوبه، وألاح به؛ لينذر قومه، ويبقى عرياناً؛ لأنه أتين
للعين، وأغرب منظرًا، وأشدَّ تأثيرًا، وأبلغ إنذارًا .

فالتجاء : فانبجوا بأنفسكم سريعاً، وهو مصدر منصوب بفعل محذوف، وقد
تكرر في بعض الروايات .

اجتاحهم : أهلكهم جميعاً .

الشرح

في هذا الحديث يشبه النبي صلى الله عليه وسلم نفسه في رسالته إلى الناس
بالنذير العريان؛ تَطَلَّعَ ^(٢) طَلْعَ العدو، فبذل وسعه في إخبار قومه بقدومه، فمن صدقه
وأسرى نجا من الملكة، ومن كذبه وبات مكانه، صبحه العدو فأباده .

كذلك النبي صلى الله عليه وسلم أُرْسِلَ نذيراً بين يدي عذاب شديد، فبذل
همة مشكورة، حتى بلغ رسالته موفورة، فمن بادر إلى طاعته، والتمسك بسنته،
سعد في دنياه وآخرته، ومن عصاه، خسر دنياه وأخراه .

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) خير .

(٣) ماريليا .



(٧) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَمْ يُحِبَّهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَمُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْتَلَ فِي النَّارِ » .

حلاوة الإيمان : الشعور بلذة الطاعة ، وعذوبة المشقة والأذى في سبيل الله :

(١) ويتجلى ذلك في حب الله ورسوله أكثر من غيرهما ؛ بملزمة المرء طاعتهما ، وإيثاره كل ما يرضيهما ، مهما ناله من مشاق ، أو حل به من آلام .

(٢) وألا يحب أحداً إلا لله تعالى ؛ بأن يحبه لتمسكه بالآداب الدينية ، وتجله بالأخلاق المرضية .

(٣) وأن يمتوى عنده الوقوع في الكفر والوقوع في النار .

وهذا الحديث يعتبر أصلاً عظيماً من الأصول الإسلامية ؛ إذ في حب الله ورسوله أكثر من سواهما دعوة إلى التعلل بجميع الفضائل .

وفي حب المرء لله بث لحسن المعاملة التي هي ثمرة مكارم الأخلاق الاجتماعية ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام : « الدين المعاملة » .

وفي كراهة الرجوع إلى الكفر إشارة إلى التخلل عن جميع الذائل .

ولا تتحقق هذه الأمور إلا لمن قوى بالإيمان يقينه ، واطمأننت به نفسه ، وانتشج له صدره ، وامترج بلحمه ودمه ، حتى صار هواه في رضا مولاه .



(٨) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَتَدْرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » .

المفردات

المتاع : كل ما ينفع به : كالطعام ، والثياب ، وأثاث البيت .
 قذف هذا : سَبَّهُ ، ووصفه بفعل الفاحشة .
 سفك دم هذا : أسال دمه بجرحه أو قتله .

الشرح

يبين لنا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أنه ليس المفلِس الحق من ليس له مال ، أو مَنْ قُلْ مَالُهُ ؛ لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته ؛ فقد يكون معدماً في دنياه ، وهو عند الله عظيم الجاه ، وربما انقطع إعساره بيسار يناله في حياته ، ويتقلب في جنباته ، وإنما الجدير بوصف الإفلاس — الذي يظلم الناس ويؤذيهم بالقول أو الفعل : على النحو المذكور في الحديث ، فهو — وإن كثرت حسناته — هالكٌ هلاكاً مُقْطَعاً ، ومُعْذِمٌ إعداماً قاطعاً ، ومدين ديناً

مستغرقاً جميع أعماله ، مانعاً له من بلوغ آماله ؛ فستؤخذ حسناته لغرمائه ، فإذا فرغت حسناته ، أخذ من سيئاتهم فوضعت عليه ، ثم ألقى في النار ، فتمت خسارته وإفلاسه وهلاكه .

فالعاقل من أطاع الله ورسوله ، وأحسن معاملة العباد ؛ ليحظى بسعادة المعاش والمعاد . وفقنا الله جميعاً لاتجاه منهاج خير الأنام ، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام ، والحمد لله في البدء والختام .

فهرس الكتاب

صفحة	
٣	المقدمة
٥	حاجة الناس إلى الرسل
٦	(١) الرسل دعاة هداية وإصلاح
٨	(٢) ما يترضى المصلحين في سبيل دعوتهم
٩	(٣) نوح وما لقيه من الأذى
١٣	(٤) إبراهيم » »
١٩	(٥) موسى » »
٣٢	(٦) عيسى » »
٤٣	محمد صلى الله عليه وسلم بين الرسل
٤٣	(١) عموم رسالته
٤٦	(٢) كونه خاتم الأنبياء
٤٨	(٣) صلاح الإسلام لكل مكان وزمان
٥١	(٤) طريقة في دعوته ، وسلوكه الطرق المتتادة
٦٦	(٥) هجرته ، والوسائل التي اتخذها لها
٨٣	(٦) مثل من أخلاقه الكريمة
٨٤	(١) شجاعته
٨٦	(ب) صبره واحتماله الأذى ، وثباته على مبدئه مع قته بالله
٩٧	(ج) عطفه وشفقته
١٠١	(د) صفته وحليته
١٠٤	(٧) محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق أجمعين
١٠٦	(٨) محمد صلى الله عليه وسلم خير الظماء الذين أقبلوا الإنسانية
١١٠	(٩) محمد صلى الله عليه وسلم أجدر الناس بالإيمان به وطاعته ومحبة
١١١	(١) عمل القلب
١١٥	(ب) » الجوارح

صفحة	
١١٧	أساس الدين الإسلامى
١١٧	(١) الإيمان بالله والرسل واليوم الآخر
١١٧	(١) الإيمان بالله
١١٩	(ب) » بالرسل واليوم الآخر
١٢٢	(٢) الإيمان وسبلة السعادة
١٢٥	الدين يدعو إلى المحافظة على النفس والمال
١٢٥	(١) المحافظة على النفس
١٢٨	(ب) » » المال
١٣١	عناية الدين بالنظافة
١٣١	طهارة البدن والتوب والمكان
١٣٤	يسر الإسلام ورفع الحرج عن المسلمين
١٣٦	(١) المسح على الخفين
١٣٨	(٢) المسح على الجبائر ونحوها
١٣٨	(٣) التيمم والأسباب الميعة له
١٤٠	عمر بن الخطاب رضى الله عنه
١٦٦	السيدة عائشة رضى الله عنها
١٧١	الآيات القرآنية العكرية
٢٠٦	الأحاديث النبوية الشريفة



كَمَل طبع الجزء الأول من كتاب "أدب الإسلام للدارس الثانوية"

مطبعة دار الكتب المصرية في يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧

محمد نديم

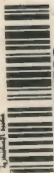
(١٠ أغسطس سنة ١٩٣٨) م

ملاحظ المطبعة بدار الكتب

المصرية



بمكتبة الإسكندرية
National Library of Alexandria



0231786